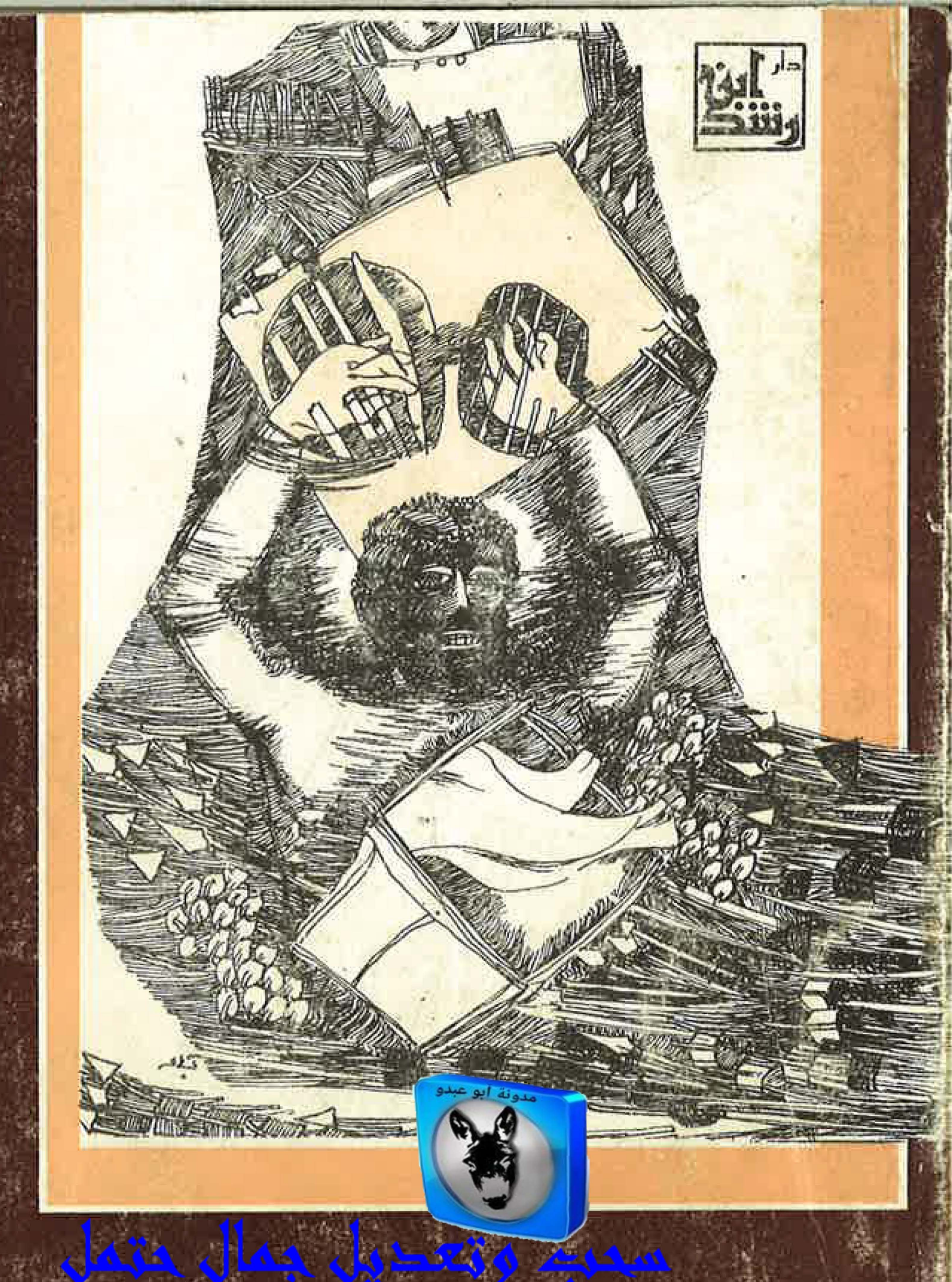
قصص



القبائل

عادل محمود

عادل محمود



قصص

دار ابن رشد

الطبعة الاولى
ايلول ١٩٧٩

صمم الغلاف : الفنان بشار العيسى

« اهــداء :

الى الذي سيبقى غائبا .. منير ! »

عــادل

« على الفلسطينيين ان يمزجوا خمرهم
بقليل مــن الماء ! »
« الاميركــان »

اختفـاء حميد الديب

حتى الان لم يعرف احد شيئا ما عن « حميد » .
اختفى الرجل فجأة ، دون ان يترك خبرا لاحد .
لم يأخذ معه شيئا : لا ثياب ، ولا مال ، ولا نظارات شمس ولا جواز سفر .. حتى ولا صورة زوجته بالابيض ، والضحكة يوم العرس .

ظل حميد غائبا . ولكن احدا ما لم ينس قامته وضحكة عينيه ، وغرغرته اثناء الكلام السريع ولثغته بالسين ،

كما لم يكن لدى الجميع شكوك كبيرة بوجوده حيا يرزق ، ولم يخطر بالبال انه يمكن ان يقتل في حادث عرضي - كما يحدث للكثيرين في هذه الايام بل لقد تطرفت الثقة بوجوده الى حد انهم قالوا : ان لحميد جمجمة لا يخترقها الرصاص ، واضلاعا تحتاج الى منشرة .

حميد حي تماما لانه لا اوان لموته .

ولكن : اين هو ، كيف ذهب ، الى اين لماذا ومتى ؟

□

٠٠ وتصمت الضاحية كل مساء ، ويرتمي ظل الفوانيس على عتبات كثيرة منتظرة عودة غائب : أم وزوجة وبضعة رؤوس ما يزال هو فيها - كايقاع الحياة اليومية : حاضرا ، وجميلا ، وضاحكا ٠

مضى الصيف ٠ انتهت شمس البحر ، والرمال ابتدأت تغسل بقايا المصطافين والبيرة والسندويش ، اقدام العشاق والبغايا ، واقفلت شاليهات حديثي النعمة والمتكبرين ٠ الخريف يتقدم ، الساحل مرتبك ووحيد ٠ الصواري تتجه صوب الميناء ٠ القرى تلملم الحبوب والمحاريث العتيقة ٠٠ وحميد لم يعد ٠ الطلبة يفصلون الصداري ويرقعون اعلام الوطن ٠٠ وحميد لم يعد ٠

كل المحافظات سألت عن رجل ضاع كابرة في كومة قش ٠ كل فروع الا من اجابت ان احدا ما لم يزرها منذ ستة (؟) وكل جهات الجغرافيا قالت : ان الرياح لم تأت بقميص واحد ممزق وعليه دم ٠ كل المقابر لم تنبت فيها وردة جديدة حمراء ٠٠

وييأس الجميع الا من شيء واحد ، « ان حميدا حي يرزق ولم ينظف اسنانه ، بعد ، من اخر وجبة عشاء تناولها في مكان ما من هذا العالم !!

□

شهادات عن اختفاء حميد الديب

هذه الشهادات جمعتها خلال عام ٠٠ وها قد مضى على

اختفاء حميد الديب اكثر من ثلاثة اعوام · وهي وثائق تدل عليه بخط اصحابها وتوقيعهم لكنها لا تدل اين هو ولا في اي مكان يعيش ··

شهـــادة اولـــى

كنا مجموعة من الشباب والصبايا ، نسهر في ضاحية جميلة ، ببساتينها وفوضاها وابتعادها عن خطط ومــراقبة الدولة للنظام المعماري والاجتماعي ، كان بيننا نجوم حفلات من اولئك الذين يقودون الغناء والضجيج الممتاز · ونجــوم ذكريات من اولئك الذين يتحدثون عن الغابر بأسم الحاضر فيتصلون بالوعظ اكثر مما يتصلون بالتاريخ والعبر · وكنا جميعا نختلف في كل شيء ومن أجل كل شيء الا اننا ننضم الى صوت « حميد الديب » عندما ينادي هيا الى الرقص · عندئذ يكون لصوت الدربكة والارجل دوي ، فنهدر نحن مثل حيوانات خارج الاقفاص ، ويتملك الوهم جباهنا بأنـنــا نتدرب على الثورة · فنغني اغاني ثورية ونصرخ · وكــان حميد يتوقف ويتوقف معه الوهم · ونحن مقهورون مـــن اشياء كثيرة لا تتبدل مع الفصول ولا مع الورش الجديدة ولا مع الاسواق والواجهات والاشياء الجديدة ، كنا بصورة مــا نتعايش مع تفردنا السري والمؤقت بصدق نظيف كما لو ان الحالة العامة زائلة بمجرد ان الحالة الخاصة موجودة · دائما كــان الصيف ، زرقــة الرياح القادمة مــن البحــر واكتئاب التحول الفصلي من اخضر الى اصفر · امتحانات الطلبة وضجرهم بانتظار المستقبل الصغير لكل واحد دائما كــان

يدعونا اليه • نأتي كالسنونو من كل المحافظات لنصب في رطوبة ذلك البستان الفوضوي • نتآلف في تجمعنا اللائق ونأتلف •• ونصرخ ان الوقت لم يعد مبكرا للخروج الى السبخات والبعوض ، الى المعامل والمدراء ، الى الكروش والوجهاء ونقول لهم : ارحلوا الى الجحيم •

في اواخر الليل •• عندما نمضي الى البيوت المتباعدة ، عندما يصبح كل اثنين عالما بدائيا ومتمدنا في آن • عندما يثغو الطفل في القلب وتتوجع الاسنان للحم والحنان الشامل •• لائتلاف المسام والشفاه •• عند ذاك يسقط بينهما ثقيلا وميتا - الوهم والذكريات • يصبحان عاريين كآيفا وآدم في امتار قليلة من الارض الجرداء ويمضيان مبتعدين ، كي يسيطر احدهما على الاخر • ويقتربان حتى اهداب القلب كي يبتعدالواحد عن الاخر •• حتى اول القطارات •

□

وقد تباعد الجميع • تباعدوا في الغربة • في الموت وفي هذا الذي نراه مجهولا عن حميد الديب •

شهادة فتاة كانت تحبه

كان يوم الاثنين ، •

حدثني في الهاتف عن سفره الذي تقرر فجأة الى المحافظات الشرقية • فطلبت ان اراه قبل سفره • اعتذر لانه مستعجل •

ومضى اسبوعان لم اره ولم اعرف عنه شيئا • طبعا

انتابني القلق • وخفت من كل الاحتمالات : حوادث الطرق ، حوادث الاعتقال المفاجىء ، مزاجه الصعب عندما يشرب كثيرا مع « اوباش » - كما يسميهم - يتحدثون في السياسة كما لو انها مغامرة مع النساء او سطو على البنوك •

باختصار لقد خفت - كما انا دائما اخاف - من المجهول الذي لا احد يستطيع التحكم بأنيابه واظافره ومخافره •

ثم عاد « حميد » نحيلا ، وشاحبا • وتحت عينيه آثار تعب وقلة نوم وتغذية • وقف بالباب وعانقني بحنان • كان قلبه حارا على ثديي الايمن كما لو انه خارج صدره • وسمعت صوت استنشاقه الهواء خلال شعري ثم سعل فجأة واعتذر وتابع السعال وجلس • في مساء ذلك اليوم شربنا كثيرا وسمعنا اغاني قديمة وموسيقى • كان مرتبكا قليلا كمن يجلس مع فتاة لاول مرة فأحسست بأن علي ان افعل شيئا ما ، حاولت ان اضع رأسه على ركبتي واناوله سجائر واشعلها ، ان احك له شعره - كما يحلو له دائما - ولكنه لم يفعل • ظل جالسا على الارض متكئا على وسادة ولطيفا كأنه نائم • كانت الساعة تجاوز الواحدة ليلا والمدينة تهمد خلف بقايا ضجيجها الكبير الوعر ، وكان لي جديلة ذهبية وكآبة تشبه كآبة العاشق المخفق •• ثقيلة ودموية وكنت ارغب في مقص صغير ولامع اجز به الجديلة والقيها - هكذا - كعصفور عند قدمي هذا الرجل الهادىء الذي يتمدد بلا صوت كظل غابة وحيدا في غرفتنا وقلبي • كنت احس ان لديه مصيبة ما ، غائلة ما تستحق ان تجز من اجلها جديلة

فتاة عاشقة ·· في ليل دمشق ، في هدوء دمشق ، وفي لعنتها المديدة الابدية ·

وها أنا على حق تماما ·· كالانثى القديمة التي تعرف اين تجد خمسة اصابع لتضع فيها قلبا صغيرا ·

فعندما استلقى بجانبي ·· عندما ارتجفنا معا في ظلام الغرفة ودخانها وانفاسنا فيها كان يغسل وجهي بدموعه · وبلا صوت يذكر قال لي :

« الان استطيع ان ابكي عليه ··· لقد مات الوالد ! » ·

شهادة زميل في السجن

كان في الزنزانة رقم « ١٢ » في السجن العسكري · اتذكر ان اول مرة اسمع فيها صوته عندما قال بعد ان خبط على الباب : « ما اسمك يا جار ؟ » كان صوته خشنا ومألوفا · فقلت اسكت افضل من ان تجلد ، فقال : انا اسمي حميد الديب ، فلم اعرفه ·

بعد شهر واحد التقينا في المهجع ، ونظمنا مجموعتنا فريق عمل ، محاضرات ، ندوات نقاش ، امسيات سمر واغاني ، كما نظمنا شؤون الطبخ والشاي والتدخين والنوم والاستحمام · لقد عشنا بما يشبه جو الكومونة الصغيرة ·· فاستطعنا ان نحلم كثيرا ، وكانت افراحنا الصغيرة تقرع المبنى حقا ·· كأنها طبول الايام التالية ، ولم نعد نحس ابتعادنا عن المدينة كسبب للالم · فحياتنا هنا تستطيع ان تكفي · ان عالما صغيرا يبنى هنا كعش ، طيبا ودافئا

يتحول مع الايام الى كل شيء ٠ ولم تنقطع لذتنا ابدا ، تلك اللذة الرائعة التي نجدها في اقتسام كل شيء ٠ كان حميد بيننا الاجمل ٠ انه دم تماما ، لا عظام ولا شعر ولا جمجمة ، صاف كعين الطفل ، وطويل كعملاق ، يصفق في الاهازيج نيابة عنا جميعا ٠ وعندما نحزن عندما يحرن هواء المهجع ، ويصبح كل سجين وحيدا مع نفسه ، يوقع حميد بأصابعه لحنا صغيرا على ركبتيه ويضطرب ، فنستمع الى طول البلاد وعرضها دفعة واحدة تئن في خفوت تحت اقدام البطرانيين والجلادين ، ندرك اننا نتلمس بالحس الان ما تعرفنا اليه بالخبرة سابقا ، ثم يهب حميد واقفا ، مدوما كزوبعة ، ويصرخ كهندي احمر ٠ ثم يدمدم بمقطع من اغنية فلسطينية : « فحملت رشاشي لتحمل بعدنا الاجيال منجل » !

كانت « لحميد » مساهمة رئيسية في الندوات ، هي قراءة الاشعار ٠ وذات يوم عرفنا انه يكتب مذكرات صغيرة، وقرأ علينا بعضا منها ، فاستغربنا ان يكون رقيقا الى هذا الحد ، وعملاقا الى هذا الحد ٠

اعتقد ان بوسعي البحث لك عن بضع مسودات له تركها قبل ان يخرج من السجن ٠

مسودة اولى

سمعت صرختها ٠٠
في الليل كانت تبحث عن شجر الشوارع الجانبية ٠

عن بقايا رائحتنا المشتركة •
حين - لاول مرة - تلامست الاصابع بخوف •
تزداد صرختها اتساعا •
ايهــا الرفيــق
اعرني كتفيك لاصعد الى النافذة
ايهــا الرفيق
لماذا كنــا نبكــي ،
انا وقميصك الازرق ،
حين صعدت على كتفيك
الى صوتها وهو يزداد اتساعا ؟

مسـودة ثانيــة

ليست هناك سوى طريقة واحدة للتدخين ،
عندما تشرق النافذة صباحا
بضوء يشبه اسنان الحسناوات
ويلعب الجميع بأعضائهم المتروكة في صناديقها
ثم ينهضون كعمال المغاسل الى تلقي الحساء
والجرذان والكلمــات المعتادة
ليست هناك سوى طريقة واحدة للتدخين :
سيجارة « حمراء » مقابل عشرة اسطر :
انا •• وغد •• يتأبط النار الكاذبة ، وانا سليل ضعف
البشر امام الانهار الكبيرة والنار ورياح كانون •
وانتــــم :
انتم ايها الجميلون آباء روحيون للخبز وميلاد البشر

انتم الطغاة ملح الارض وسكر الشاي الحزين •
ايها الجميلون الرقيقون الطغاة :
سيجارة « حمراء » مقابل لسان احمر ورأس مائل •
سيجارة « حمراء » امام النافذة
المشرقة بضوء يشبه اسنان الحسناوات

مسودة ثالثة

أمس ،
جاءنا خبز اسمر وزوجات شاحبات
قرية مرتبكة في الخريف
وايد تلوح في مطار الثلوج •
صرة اخبار بنية وزعتر بري :
« زغلول مات وهو يبتسم •• »
« مريم تزوجت عريفا في المخابرات •• » •
« الامطار الطويلة الاصابع ، ذات الفستان الازرق
الواسع رحلت الى امريكا •• » •
« صار ابن الجيران طبالا في الغابات ••
جن المسكين في مخفر الشرطة » •
« ابوك يدخن ، وينتظر •• ويتقدم في السن

□

جلسنا حول الخبز الاسمر
حول القرية ، والزعتر
ورائحة الزوجات المسكرة تزقو كطيور البحر ،

كان خريف حزين حزين وامطار خفيفة
كنا مثل البجع النائم ..

ولم نـأكل شيئا !

مسـودة رابعـة

أعين زرقاء وسوداء وبنية
كنا سبع عواصم في مهجع واحد .
اكتافنا ملونة بالصفعات وحبال الموانيء العربية .
كنـــا ،
سبع عواصم ولغة واحدة .
لكن الرجل الطويل الاشقر الصامت .
جاري في السجائر والمغاسل وأزهار المستقبل ..
لم يقتن بعد عاصمة
سوى قدمين ودربا موحشة .
الرجل الطويل الاشقر الصامت
منفي خارج الجدران
منفي داخل الجدران ..
ولـــذا ،
أعطيناه مسلخ الوطن العربي :
من نواكشوت .. حتى الخليج العربي ..
وفلسطين القادمـة !

مسودة خامسة

الوادي يخترق التلال الخضراء :

النبـــع
والظهـــيرة
وقبعات القش ٠
صغير مثل قلم الرصاص ذلك الدرب في التلال ٠
زوج من الرعيان وقطيعان انفصلا
يلهث الصبي ويضحـك
تلهث البنت وتخجل ٠
تلفق الخراف كأنها تهذي ،
والبرية توشك أن تضحك ٠
يهتز الصفصاف الانيق على النبع
ويختفـــي ،
يختفي العاشقان في الدغل ٠

□

أيتها الطفولة ٠٠ أيها القطار الصغير الاحمق ٠
مـدي شراعك صوب كاهلنا ٠٠
احلقي لنا الشاربين
وشعر العانـة ٠٠
أيتها الطفولة ٠ لا تفعلي ٠
ابتعدي عن الغبـار
ابتعدي عن المدى المجدي للذاكرة !

شهادة أخذت مجرى آخر

ان كنت تسأل عن « حميد » فقد التقيت بمن يعرفه حقـــا ٠

فقد رأيته كثيرا وعشت معه طويلا · أعرفه من أول يوم كان يرعى فيه أغنام القرية ·· وحتى اخر يوم صاح فيه : يا ويلي !

لقد كانت تلك أيام الاثقال : التي تهد جبلا كهذا الرمادي الاجرد الذي تراه · وكان على الرجال اعتماد كبير ، فليكونوا أقوياء وأشداء وذوي أعين حادة كأعين النمور ·

ان يدا واحدة وصغيرة - كيديك الناعمتين - لا تكفي لتكسير الحجارة وعظام الرقبة ، وتمزيق سروال امرأة يهودية ، فالتاريخ اللعين الذي عشناه - نحن جيل الاثقال التي تهد جبلا كهذا الرمادي الاجرد الذي تراه - كان يبدأ من المقلع والاغا التركي ·· ولا ينتهي عند حواكير صفد البائرة وشلومو اليهودي · وهكذا فالدنيا احتاجت الى أيد كبيرة صلبة لو أرخيتها على رأس فارس الخوري الضخمة·· لهوى فارس بك الى الارض وطارت الوزارة ·

« حميد » كان من هؤلاء الرجال ، ذراعه مثل جذع بلوطة لا ينغرس فيها خنجر شركسي · وكان عقله يشتعل فترى نارا في عينيه الضيقتين ويرتجف كصفصافة تقترب من الماء ·

المهم ·· «حميد» لم يتأخر عن النداء الذي وجهته البلاد المنكوبة الى الناس · فذهب فيمن ذهب الى حرب فلسطين ، كنا معا في « الفوج العلوي » بقيادة غسان جديد ، وهكذا رحلنا الى فلسطين أفواجا أفواجا : الفوج الحموي ، والشركسي ، والادلبي ، والاردني والعراقي ·· الخ · وكان

من نصيبي بندقية نمساويـة خديويـة طويلـة مثـل عصا الزيتون ٠ فرحت بها وبسنكتها البيضاء اللامعة ٠ ووعدوني « بفشك » لها بعد يومين ، ثم قالوا بعد يومين هذه ليس لها فشك في العالم كله ! كان « حميد » أكبر مني بسنـوات ولذا فقد حصل على بندقية « فلانت الماني » وكانت تصيب جيدا ٠ ولكن ، ولكن يا بني العرب خائنون ٠٠ وعـرب ذاك الزمان كانوا لا يفهمون ايضا ، أو أنا لا أفهم كيف ان اميركا تعترف بدولة اسرائيل بعد اثنتي عشر دقيقة فقط من اعلان بن غوريون عن قيام الدولة ، ثم يقول الملوك العرب : نحن لا نريد الخلط بين السياسة والاقتصاد ٠ وسنحافظ علـى تعهدنـا بحمايـة التابـلاين والامريكـان والامتيازات التي منحناهم اياها ٠ لن نضحي بذلك من أجل قرية صغيرة اسمها فلسطين ٠ « حميد » كان يقول لي ونحن في وعر صفد اننـا سنموت برخص ٠ المكتوب معنون سلفا ، وهذه الجيـوش والاسلحة وخطط الحرب لا تساوي شيئا ٠

ومات « حميد » في معركة « دجانيا » ٠٠ وأستطيع حتى هذه اللحظة أن أبكي عليه ٠ فهو بلا قبر ، ولا تذكار ، ولا ريحان أخضر ٠ الا انني منـذ عـام ١٩٥٠ وانا اخفر علـى شجرة الحور ـ كلما امحى ـ اسمه الكامل : « حميـد أبو عارف » فلسطين ـ وأقول : يا حميد الافضل أنك لم تعـد بيننا اليوم ٠٠ لقد صار اليهود بجانب دكة سراويل النساء العربيات ، وما زال الملوك وغير الملوك يسمون الهـزائم انتصارات، والحرب كروفر وكلهم مكيفون مسرورون لانهم ـ تحت العقال والحطاطة ـ يضعون نظارات ويطقون الحنـك

على طريقة الاجانب بالملون وغيره عن السلام والهدوء ··
واستقرار المؤخـرة !

شهادة الطـراش أبو كامـل

تعرفت الى « حميد الديب » في سهرة عند أصدقاء ، وفهمت منه انه يبحث عن عمل فمزحت : هل تعمل طراشا ؟ فوافق ، وفوجئت بأنه التحق بالورشة في اليوم التالي · كان شخصا طيبا ولا يجلب متاعب لمن يتعاون معه · وكـان ضاحك الوجه وصامتا غالبا · كان ماهرا أيضا علـى الرغم من انه لم يتعلم ولم يمارس هذه المهنة سابقا ·

ذات يوم كان عليه أن يذهب الى المدينة ليدهن شاليه أحد الاثرياء فتأخر عن العودة · يوم يومان ثلاثة ·· ولـم يعد · ذهبت الى غرفته في حي الرمل ، فلم أجده · وسألت عنه فلم يخبرني أحد بشيء ، فكان علي أن أذهب الى المدينة السياحية كي أسأل لكنني ما استطعت التعرف الى تلـك الشاليـه ·

مضى اسبوعان قبل أن التقيه مرة أخرى فجلسنا ، وقص علي ما جـرى :

باختصار ·· يا أبو كامل ، هذه الدنيا ضيقة جدا وعلينا أن نوسعها · ولكن كلما حاولنا كلما ضاقت أكثر · وأنا صرت أحس كأنها قبة قميص اسود ، ضيقة وقذرة · وذات يوم ستراني « بالزلط » مرتاحا ومجنونا وبعافية تكفي ·
في الشاليه التي كنت أعمل بها واجهت لحظة وصولي

رجلا بالمايوه متمددا كبقرة تئن وحوله سجائـر وويسكـي ونظارات وفستق ، وفي الداخل كانت هناك فتاتان صغيرتان ١٦ - ١٧ سنة · جميلتان ومكسورتان وبينهما وجه شبـه كبير · خلسة سألت واحدة : ماذا تفعلان هنا · فقالت نحـن زوجات هذا الرجل · ثم عرفت انهما اختان وان اباهما رجل من « كفريه » باعهما للسيد الممدد كبقرة تئن ، وهذا السيد ينام مع الاثنتين · فلم يكن بوسعي السكوت يا أبو كامل ، فتحدثت معه بلطف وبصورة ثقافية لاقنعه ان هذا لا يجوز ، وحرام شرعا ، فنهرني وقال : « شوف شغلك » أنـت دهان فقط ·· فرضيت ولكنني قلت له أن يريني الغرف في الداخل وطلباته في الدهان · فدخل وكان كرشه الكبير يتقدمه ويزكم أنفي · فأقفلت الباب باحكام وقطعت خط الهاتف ·· ثـم وضعته في الزاوية وتفاهمت معه كما ينبغي لغريبين ، وعالمين وبشرين وقضيتين أن يتفاهما · المهـم تركت صاحبنا يئن نيابة عن كل الطغاة وحديثي النعمة وسواهم من خنازير هذا الزمان · ثم أمسكـت الهاتـف وقلـت للشعبة السياسية اسمي حميد الديب وقد فعلت كذا وكذا وكذا · فان كان يجري في عروقكم دم البشر فتعالوا وخذوا هذا الخنزير الى أول نقطة على الحـدود وابعثـوه للملـك بقفا مركـول واضلاع مرضوضة · وانتظرت ·· فجاؤوا · ولكنهم أخذوني انا الى اخر حي في اللاذقية ·· واعتذروا منه ·

□

« حميد » لم يعد للعمل ، وسمعت أنه ذهب الى حلـب واشتغل ساقيا في كباريه ، ثم سمعت فيما بعد انه كان

سجينا سياسيا ، وانه قبل فترة قصيرة من تعرفي عليه قد خرج من السجن .

ان على رجل مثلي - يعيش ويعرق كثيرا في العمل - ان يهز كتفيه لهذه الدنيا التي هي ضيقة فعلا وعلينا ان نوسعها كما قال حميد فعلا .. ولكننا كلما حاولنا ... كلما ضاقت اكثر !

شهادة علي أبو الريم

أيام مجازر أيلول في الاردن ، افتتح الباب للتطوع الى جانب المقاومة . وكانت المقاومة انذاك رمزا لصمود هذه البلاد الخاوية بعد حزيران الا من اليأس ، وكان القتال الى جانبها يعني المساهمة في انقاذ اخر امل كان يرفرف فوق ساحات سوداء ملأى بقطع الدبابات والاشلاء .. والارض الوطنية .

ذهب « حميد » الى مركز التطوع (فرع للحزب أو شعبة .. لا اذكر) وقال الكلام الواضح التالي : « أنا اريد شيئا مقابل تطوعي . » ولما استغربوا ، قال : « كيلو خبز واحد يوميا لزوجتي - والطفلين ، هل باستطاعتكم الوعد بذلك ؟ » فضحك الجميع بمحبة ، وعبس هو وقال « أريد وعدا » فضحكوا ثانية ووعدوه . ومضى الى « درعا » ثم مع الوحدات الخاصة الى اربد وعاد بعد اسبوعين مهزوما ، ذهب الى البيت فلم يجد أحدا سوى القطة تموء ، سأل عن زوجته فلم يقل له أحد شيئا . ذهب الى مركز التطوع وسألهم عن

كيلو الخبز فحدثوه عن طن الحرية والمقاومة ، فأمسك بقبة الرفيق « ك » وصفعه على قفاه كما تفعل بخروف • وظل يصفعه حتى ارتمى وهو يصرخ • وجاءت الشرطة ••
ومضى اسبوعان اخران • ثم بحث عن زوجته وطفليه من جديد حتى عثر عليهم في احد بيوت الاكابر والمرأة تجلي وتكنس وتغسل وتشتري خضروات وتطبخ وتنتظر عودة الاردن وفلسطين وحمد الديب ملفوفا بأعلام الوطن !

□

مضت تلك الايام ، ولكن لم تمض بالنسبة له • صار نزقا قاسيا وجاءه طفل ثالث وأصيب هو بمرض عصبي وانطرح في الارض يئن كعملاق وكثيرا ما ينشج لثوان في حضن زوجته ؟

□

كان نادرا هذا الرجل • خارجا من قصر كبير لازمنة سابقة او لاحقة •• لا أدري ، ولكنه كان نادرا ونبيلا بمقدار ما نعرف – في الحياة والكتب – عن النبل والندرة •

هل سيعود قريبا ؟ ارجوكم ان تتفضلوا بابلاغي باخر معلومات تحصلون عليها • شكرا •

تعليق غير نهائي

حتى الان •• لم يعرف احد ما شيئا عن «حميد الديب»•
اختفى الرجل فجأة دون أن يترك لاحد خبرا •

لم يأخذ معه شيئا ٠٠
لا ثياب ولا مال ولا نظارات شمس ٠
حتى ولا صورة زوجته بالابيض والضحكة يوم العرس ٠

ربما هاجر من وطن تحكمه القبائل ، الى بلاد يحكمها العدل أو الكلاب ٠

ربما ظن في البحار شريعة تعفيه من الموت على اليابسة بين الاحياء الاموات ، فصار بحارا ومضى الى الموانيء والبغايا المنتظرات قراصنة وأساور من هذا الشرق ٠

ربما مات وحيدا في الغابة ٠٠ حطابا وفهدا يائسا عند الجذور فكان وفيا للموت ٠ وقوفا بلا كفن وأناشيد كاذبة ونـدابين ٠

ربمـا ٠٠

ربما كان وهما، ونحن نبحث عن وهم واقع، جيلا ونحن معه عمرا ضائعا نوجد فيه بلا وجه وملامح ترفع صوب رايته اسما ٠٠ أو سندات للملكية وحق الموت ، وحق الصلوات الطيبات ، السلام المخاتل ٠

ربما كما اسمه قد ضاع في نصف قرن من زمان الصحراء العربية : نفطها ، وحكامها ، بداوتها وانحطاط البرد في لياليها ، عظاما ولحما وكنوزا تصير بنوكا وامريكات عدة ٠٠ وحزن شديد شديد ٠

ربما تحول فينا فصار حياة ، واتجهنا اليه فصرنا يائسين ٠

ربما هو بيننا الان يخفق مثل البيرق مرتجفا مرعوبا مما يحدث تحت الذاكرة الان ٠

ربما صادر هذي الاوراق وقال : عودوا الى الوشم على الايدي وارنبة الانف ووجوه السمراوات ٠٠ كي لا تنسوا ما حد ث في كل الايام أو في كل الاعوام الطيبة الذكر ، ما اكثر هذي الاعوام الطيبة الذكر !

ربما ،
ربما ،
هذا لا ينفع أحدا شيئا ٠
فلنبحث عنه كما تبحث أم عن طفل ضائع ٠

فلنطلب من كل الدنيا أن تبحث عنه ٠٠ مثلما تبحث كل الدنيا عن بئر النفط ، وعن أسرار الفيضان، ورأس الثورة ٠

فلنبحث :
في شارع المهدي بن بركة ٠
في شاع الجلاء ٠

وساحة التحرير ، وفلسطين واليرموك وفي الشوارع التي لم تسم بعد بأسماء لائقة ٠

فلنبحث عن أحبتنا اجتمعوا في عروة سترته ٠٠ وضاعوا فيه عندما ضاع ٠٠ مثل الابرة في كومة قش ٠

فلنبحث ، فلنبحث ٠ فلنبحث ٠

اخـــر خبـــر

جاءنا رجل ولم يقل ما اسمه ٠٠ أخبرنا :
رأيــت حميــدا
سمعت شهقته ، صوته ولعنته ،
انه في قبو ، يتلذذ بالكهرباء وبعض الاسئلة وشوربة العــدس ٠
انه بيننا يرتعش كقلم رصاص ويحدق في سقف القبو ٠
لم ينظف اسنانه بعد من اخر وجبة عشاء تناولها ٠
قدماه متورمتان من دروب الوطن العربي
والديمقراطيــة ! !

دمشق ٠٠ تشرين الثاني ١٩٧٨

العثور على أحمد ميرزا

الحساء الجيد يطبخ دائما في قدور قديمة

هذا الرجل ذو المعطف الطويل والعينين الواسعتين ، لو كان وطنا لكان القلب الذي في صدره ، عاصمة له ٠

□

هذا الرجل ذو الساقين النحيلتين اللتين تشبهان الرحيل ، لو كان غابة من اشجار البتولا ، او الصفصاف ، او العرعر ، لكانت رئتاه مصدرا لكل ذلك الهواء النقي الرطب الذي نعرفه ٠

□

هذا الرجل الذي يتجه الان الى المقهى ، الى زاويته اليمنى ، تماما أمام الرصيف ، لو كان مغنيا لتجمع في حلق العالم كل ما في صدره من الكلمات ٠

□

هذا الرجل الذي يجلس الان على الطاولة الزرقاء ٠٠

هناك • أترى ، هناك ويخلع قفازيه ونظارتيه ، ويستكين على مقعده ، اخر من يخرج من هذا المقهى •

□

هذا الـرجل الشاحب
يطلب كـأسا اخـرى !

الرجل الشاحب يسكر

لماذا علمونا ان وصية الموتى محترمة ؟
هل بسبب الخوف ام بسبب الحزن ام الرهبة ؟ أم هكذا كانت تبرئة لذمة الحي من الميت عندما ، غدا ، يلتقيان في الممرات الضيقة للعالم الاخر ، وتأتي العين بالعين فيخجل المدين ويعتب الدائن • ؟

ولماذا لا يعلموننا ان حقوق الاحياء محترمه ايضا ؟
هل هي غير محترمة لانها غير ثابتة ، غير مملوكة ؟ وهل ملكية الفم الذي يحتاج للقمة والشربة ، والجسد الذي يحتاج للفراش والقميص ، والمأوى ، والروح التي تحتاج للموسيقى والاشعار والكتب ، والنزهات •• هل ذلك يحتاج الى وثائق ثبوتية ، وقانونية كي تحترم ؟

غريب هذا العالم ، كأنه لا شيء فيه يمكن تمجيده سوى الموت ، والوسادة الاخيرة التي تنزل الى القبر •
القلب الذي كان يخفق ، الذراع المعانقة ذراعا أخرى والقبضة على القبضة في شكل قلب يائس واخير •• هكذا الموت ممجد في اعين حاضري الجنازة ، وتمتمات شفاههم ،

وتهدل اكتافهم ، وكلمات العزاء والحزن والرحمة ٠

قولوا ـ علنا واخيرا ـ أن الموت ، هو الاخـر ، لم يعد ممجدا ، ولم يعد ممكنا على هذا النحو الاحتفالي المواسي ، وان الجسد الذي كان حيا بلا مأوى او قميص ، هو الجسد الذي ـ الان ـ بلا حفنة تراب للجفنين والفم ٠

فالموتى في المدينة يشترون قبورهم ، ولانهم احيانا لا يثقون بمن حولهـم ، يشتـرون عشـرة اذرع مـن القماش الابيض ، وزجاجة عطر ، ولفافة قطن ، وربما زوجا مـن الجوارب البيضاء ويقولون « هذا كفننا ٠٠ شكرا ٠ »

هذا ينطبق على موتى المدينة ، اما الكثيرون من الشبان فانهم يتركون اجسادهم بالبذلات العسكرية ٠٠ هناك حيث ينمو الكثير من العشب البسيط والجميل في عراوي الازرار واخمص البنادق ، ومركز النسيان في الجمجمة ٠٠ وأنـت الصنف الثاني ، الصنف الثاني في كل شيء لديهم ، حتـى في الموت ٠ فكم زهرة حتى الان كبرت في جمجمتك الصغيرة ؟ كم نحلة غفت عليها وجنت عسلا ؟ ثم لماذا لم تقل لي انك متأكد من موتك كما كنت متأكدا من قذارة حياتنا جميعا : المستغلين والمستغلين ٠ النساء والرجال ٠ الرعاع والاسياد ٠ القديمين و « المودرن » ؟

لو قلت لي يومذاك لوفرت علي زياراتك المضنية لي في كل مرة أضع فيها شفتي على كأس ، لجرعة سم تمسسها انت بطرفي اصبعيك وتقول بحـزن خفيـف : « هنيئا ايها الاخ ٠ » ايها الاخ انت ٠ دعني ٠ اريد ان اؤلف اغنية وانكش

اسناني ، وامد ساقي ، واهمس لفتاة ٠ أريد أن اشعر بذلك الضعف اللذيذ ، عندما أرى الاموات في الشارع ، او ساحة الاعدام ، او المستشفى ٠ أريد الاستمتاع بكوني لست انا ذلك الذي في الشارع او المشنقة او المستشفى ٠٠

حتى هذا امر غير ممكن ما دمت معي تماما مثل اظافري ولساني الاحمر ، معي ، كما لو انك ، قد فصلت على قدي ، وقد افراحي الصغيرة ٠ جئت الي ، ودائما تفعل ذات الشيء ، بحزنك الخفيف الرقيق العاتب لتقول وكأنك تعتذر ٠ « هنيئا ايها الاخ » ٠

حسنا ٠٠

حسنا يا صديقي ٠ هنيئا لي ٠ شكرا لك ٠ سأبطل تذوق الخمر كرمن لك ، ساحتسي بدلا من ذلك شوربة العدس في كأس ٠ سأقول للاصدقاء وللنساء اللواتي يستنكرن رجلا لا يشرب ٠٠ سأقول لنفسي التي آخت موال الشيطان منذ عشر سنوات : اخي ٠٠ بطلت الشرب ٠ اختي بطلت الشرب ٠ أنا كلب شوربة العدس المدلل ٠

واذن ٠٠ وبحزن خفيف مني هذه المرة لا بد من الوداع ٠ فدعنا نفعل ذلك بما يليق بمعزتك عندي ، وكما تستحق أنت فعلا ٠ بل لنقل كما ينبغي لاثنين يفترقان لانه لا بد من الافتراق اولا واخيرا ٠ ما تقترح ؟

هل نذهب الى الغابة فنجلس على مقعد ونمد أرجلنا ونفتح أزرار القمصان ونغمض اعيننا ونتشمس ؟
أم نقوم برحلة صيد ، ونركض خلف الارانب ، نضرب

الديناميت في الانهار ونأكل سمكا مشويا بالرماد ، ونشـرب نبيذا ونستحم « بالزلط » في النهر ٠٠ ثم نعود في المساء ونسهر في ملهى ليلي ؟

هل يناسبك ان نكتب معا ، وليوم كامل ، مذكراتنا ونقرأها لبعضنا ثم نضعها في زجاجات بلاستيك ونلقيها في البحر عند مسبح افاميا ؟ سيعثر عليها بعض الصيادين او فقراء الشواطىء فيفرحون بها لحظة ثم يكتشفون لعنـة مناسبة لكلينا ٠ وربما احتفظ بها احدهم وقرأها لـزوجته الشابة وتسليا بها في مساء شتوي مع كوب الشاي ٠ ها ٠ ماذا تقول ؟ اقترح أنت ٠ عفوا ، انتظر ٠ لدي اقتراح اخر ٠ تعال « نطبق » فتاتين من هذا الملهى ونذهب معهن للرقص٠ نسكر هناك ٠ نرقص ٠ نتحدث عن بلادنا وعن أحوالنا ، نقول انا طبيب وانت صياد وشاعر شعبي ثم نذهب الى البيت ٠ انت تغني لنا اغنية « ماريا والفهد » ، وانا انصح بمزيد من الكونياك لمداواة « الكريب » ٠ لا تخف انا اؤلف لك اغنية وتغنيها على لحن « سكابا » ، نترجم لهن الاغنيـة فينتعشن برائحة الدنيا الغريبة القادمة من الكلمات وحركات اعيننا المضطربة والقصة الخرافية عن غرام الفهد بماريا التي ربتها الغابة حين تركتها امها على باب الجامع تجنبا للفضيحة ٠ الخ ٠ الخ ٠

ها ؟ ماذا تقول ٠ قل شيئا ٠ اقترح ان نفترق بصورة لائقـة ٠٠

لا اقتراح لديك ؟ اه يا عزيزي ، اه من عينك اليسرى

التي تتهدل لوحدها وترتمي ، كأنها فراشة من اللؤلؤ ، على كفـي ٠

اه من اصبعيك وهما تمتدان الى الكأس لتسميم هـذا السم ، فتجعلانه شيئا يبدل هذا الجسد ولا ينسفه ٠ يطهر الذاكرة ولا يبدد مراثيها ٠ شيئا ما يحيي ولا يميت ٠

اخي ٠٠ فلنفترق اذن كيفما اتفق ٠ هات يدك ٠ ضعها هنا في هذه الخاطئة ٠ شد قليلا ٠ هزها قليلا ٠ دعني ارى وجهك تحت هذا المصباح الخافت ٠ عينيك ، وجنتيك النحيلتين٠ شعرك الاسود الاشيب، ماذا اسميه ٠٠ الاصهب٠ قل : الى اللقاء ٠ بل قل الوداع ٠ نتراجع كلانا خطوتين الى الوراء ثم نستدير ونمضي ٠ ثم الوح لك بأصبعين واخرج من الباب محاذرا الاصطدام بالواجهة الزجاجية واتماسك ، اشد قامتي لكيلا يبدو انني سكران ٠ يتلقاني الهواء البارد ومنظر الثلج والاشجار الرمادية العارية ٠ تبقى انت في المقهى قليلا ٠ تطلب قهوة من الانسة الشقراء هناك وتنتظر حتى تتأكد من ان صديقك ، انا الحزين على الفراق حزنا خفيفا ، قد اصبح في محطة القطار ٠

الرجل الشاحب يتعرف الى هانز ٠٠

في قطار اخر الليل كان السكارى يتمايلون ، اثنين او جماعات ، وقليلون كان المتوحدون ٠ اشتعل الغناء والصياح والضحكات والقبل ٠ وفي الخارج دفيف الثلج ورياح تئن ٠ الاشجار تتمايل ويعلو دخان البيوت القرميدية ٠

تضـــاء الشبابيـــك وتســـدل الستائـــر او تطفــأ الشبابيـــك وتصطفق الموسيقى المنبعثــة منهــا للحظــة كالاجنحة ثم تختفي تحت صوت العجلات ، القضبان او الغناء او الريـــح التي تمضي ، وهذا الرجل المنسدل رأسه على صدره مال الى الامام والخلــف فأفــاق واعتدلــت جلستـــه ثم امـــال القبعة وتنحنح • صرخت فتاة بهياج : قبلني وضحكوا وغنوا معا وصفقوا ملحنين اغنية مشتركة : « قبلنـي بالزهرة يا ذا الفتى المترنح قبل ان تنفرط الاوراق بين يديك • قبلني في الصباح، وفي المساء خذني للرقص • هيا نظف اسنانك ، واغســل قلبك بالشمس وغن لي • احبــك •• قبلنـــــي يا ذا الفتى قبلنـــي •• »

ثم جاء رجل في الخمسين طويل ، واشقر وبراق يتسند الاعمدة وفي يده اليسرى كيس رمادي • جال بعينيه بحثــا عن مكان فوجده • قال عفوا ، وجلس •

والرجل صاحب الكيس الرمادي الذي قال عفوا وجلس صمت أمدا ثم قال : هؤلاء الاولاد لا يعرفون كيف تغنى كلمات الحب • لانهم يحسبون الاتكاء على كتف المراهقات وتقبيلهن في القطار هو الحب • هل تريد ان تسمع اغنيتي القـــديمة التي تشبه قبعة من القش ؟ ولم يمهل حتى أجيب • اخذ مني ابتسامتي واخرج الجيتار من الكيس الرمادي وانقض كطير مقتول بأغنيته الحزينة السريعة والقطار يدخل فـــي الرماد الذي يملأ ليل برلين وسماءها القاتمة • نتأرجح مـع الاصوات المختلطة ، ونأسف معا نحن الثلاثة : هانزا وانـــا واغنية قبعة القش القديمة :

العنب الناضج ذو الحبات اللامعة ٠
الفتاة الحاملة سلال العنب الناضج ٠٠
الكروم الصفراء في الخريف الواسع الخطى
المســـاء
المســـاء
وهو يمضي الى مخزن الخمور ٠
خلفي انا يترعرع كل هذا العالم

□

يا سيــدتي
انا عاصر الخمور القديم المحتــرف
ولكن قدمي متشققان من الركض في الخنادق ٠
لــديك خمــور
ولدي اقدام متشققة ٠٠
آه يا ذات السلال والكروم والمساءات
كم لــدي اعين مشتاقة
وكم هو رائع
هذا الذي يجري خلف النافذة

□

عنب وفتاة وخريف ومساء وقدمان متشققان
سوف يبقى الكل في الذاكــرة
ناعمــا ويائســا
مثل عشب يتحــول
من اصفر الى ازرق الى اخضر !

يا هانز الرائع ·· انت مدهش تماما · عازف ممتار وشاعر تشبه الجبل ·

وحكى هانز ، والاصح انه ابتدأ يحكي قصته مع الدنيا ، ولان الوقت المتبقي للوصول الى محطتنا لم يعد يكفي فقد اقترح ان نشرب كأسا في بيته ·

وبيت هانز مؤلف منه وحده فقط ، فهو ممتلىء بالصور والتذكارات والجيتارات العتيقة ، والالبسة القديمة من الاربعينات ، وعلى كل عمود صغير توجد قبعة عتيقة بعضها مما يلبسه السجناء وبعضها مما يلبسه عمال المناجم ، والبعض الاخر مما يلبسه عاصرو الخمور · وقصة هانز الطويلة المؤلفة من عدة فصول سأختصرها هنا ببضعة اسطر اذا استطعت ·

كان هانز شابا صغيرا عندما جاء هتلر الى الرايخستاغ ، وعندما انطلقت الحرب تأكل لحم اوروبا كان جنديا · قاتل اعداء مجهولين يشبهون الاشباح ، وشرب وحلا في الخنادق ونبيذا فرنسيا في الاقبية ·

كانوا يقولون له في الصباح والمساء : لا أهمية للموت ما دامت المانيا العظيمة تحصل على كل هذه الاجنحة الذهبية · وكان ملوثا مثل غيره بالهوس الذي يصيب الجماعة في الخطر · ولذا فلم يعتبر من جهته ايضا ان الموت لمسة شيطان بل مداعبة حنونة من الله ، وهتلر ·

وقبل ان تقترب الحرب من نهايتها صار هانز يسقط وينهض في وحل وثلوج ستالينغراد ثم يتقهقر حتى الحدود ،

وهناك وقع في الاسر ، جريحا ومحطما ·· وانتهت الحرب ·
هنا ابتدأت الرحلة الثانية · رحلة لا يقودها - هذه المرة - لا الله ولا الشيطان بل عدد محدود من المدربين الماهرين · بيد كل واحد منهم سطل وفرشاة واكياس من الصابون · « انهم ينظفوننا من البراغيث » كان يقول الاسرى ، وهانز يعرف ، لاول مرة ، ان جمجمته المدورة مليئة بالالاف منها وان عليه ألا يشعر لثانية واحدة بأن الوقت قد فات لاسترداد البشري فيه من انياب الوحش · كانت الحياة في معسكر التأهيل قاسية لان على كل الماني ان يبني هناك في موسكو وستالينغراد واوكرانيا ما هدمه بيديه ومدفعه وطائرته · وعليه ايضا ان يرى جيدا وفي ذات الوقت بديله في نفسه من خلال الوعي الذي يخلقه العمل والمحاضرات والامل ·
قضى هانز في معسكر قرب موسكو ثماني سنوات · اقترب فيها يوما وراء يوم من الوطن الجديد ·· المانيا التي تبنى بأيدي من تبقى من مناهضي نازيتها البائدة · وابتعد هانز شيئا فشيئا عن تاريخه ، ابتعد عن الوحش حتى حدود الوداعة · واقترب من سلام النفس حتى حدود الامل · كان يتدرج في المعسكر من عامل عادي في نقل الاحجار الى ان وصل الى مهنته القديمة ، يعصر النبيذ للموسكوفيين الذين يحتفلون بعيد النصر ويملأون الكؤوس والحدائق والساحات بالاناشيد الفرحة والنحيب الخافت والانخاب · لقد كانت المدينة تئن خلف شمسها الرمادية وضحكتها الداوية!·
ويوما طلب هانز من مسؤول المعسكر غيتارا فأعطاه ·

فغنى سنوات تحت الطوابق التي تنهض ، والشبابيك التي تمتلىء بالغسيل ، والفتيات النحيلات ، وكان سعيدا بالاشعار التي يكتبها والاغاني التي يحفظها زملاؤه حتى اليوم ويرددها من تبقى منهم في الحانات والاعياد والقطارات . وصار هانز يحب موسكو . وبعد ثمان سنوات كان اكيدا انه نظيف تماما من البراغيث . وعاد الى برلين وانخرط في ورشا تالعمل . وهو يفاخر بأنه واحد من الذين بنوا هذا الجبل من الانقاض وحوله الى منتزه ضخم للبرلينيين الذين لا جبل لديهم . « ولا يطيب لي الامتلاء بالبيرة والنقانق المشوية الا هناك تحت الاشجار التي زرعتها هاتان اليدان اللعينتان » .

- لا .. لست مرتاحا . صرخات القتلى وانات الجرحى ابتعدت مع الطلقات الاخيرة والزمن .ابتعدت وهي تأتي شاحبة ، ومتوسلة قليلا . انها تأتي على اية حال ، وفي اوقات مربكة . عندما يفك صديقك هانز سراويله ، او عندما يتوارى صديق من اصدقاء تلك الايام . وكثيرا .. اذ تأخذ الفودكا او البيرة هيئة ضمير متطرف وابيض ، عندئذ ارى الجميع في الشاحنات لحما بشريا محروقا يصدر اصواتا شاحبة ومتوسلة ، ولكنها عميقة ومؤذية وصارخة فأوشك على الجنون .

لا .. لست مغسولا ايها الصديق . ان براغيثي تبددت في النظافة ولكنها اكملت تسممي . انني حزين . لدي اطفال مرحون . بلادنا مليئة بالبشر الجديدين والصحيحي الدماغ والقلب ، لكن حيرتي في طلقة الرحمة التي تأتي من الامام

والخلف وكيفما اتفق ما زالت قائمة ٠ هل تعلم - بالمناسبة - انك اول انسان يسمع اغنيتـــي هـذه منذ اكثر من عشر سنوات ٠٠ بمثل هاتين العينين المنتبهتين ؟ربما لانك مـن بلاد اخرى ، ولديك الفضول وربما لانك تعرف العذاب او لانك تملك الخيال الذي فقده ابناؤنا الان ، الخيال الذي يستطيع صنع تجربة والبكاء عليها ٠ صدقني ان الجميع هنا والذين يعرفون هتلر وغورينغ وهملر ومجازرهـــم الشنيعة ٠٠ لا يشعرون بصوت الالم البشري وهو يتصاعد ، كأعمـــدة الدخان الاسود ، الى اللـــه ٠ ان ذلـــك بالنسبة لهم شيء بربري وقديم وموضوع مهم للدعاية والتثقيف الطلائعي ٠٠ موضوع مهم وماض وحسب ٠هذا هو السبب - على الارجح - في ان جيلنا هو الذي يحكم حتى الان ٠ اقصد جيل التجربـــة والنار والويلات ٠ لكن اولا واخيرا سيغادر هذا الجيل مفسحا مكانه للصفوف الثانية والثالثة ٠ وهذا ما يقلقني انــــا ؛ فالوحوش ، لم تزل في عالمنا اليوم ، مشغولة بسن الانيـــاب والاظافر استعدادا لقضم مستقبل البشر في وقت مناسب ، البارحة فقط القي على الفيتناميين من القنابل ضعف مـــا القي على البشرية كلها في حربنا العالمية المقيتة الذكر ٠٠ الوحش يا صديقي ينام معنا في السرير ، ويحرمنا النـــوم بأنفاسه الكريهة ومخاوفنا القاتلة ٠

□

وتوقف هانز كأنما توقف قلبه ثم قال بأسى :

٠٠٠ فلنشرب الباقي في هذه الزجاجة ، ولنمض الـــى النـــوم !

الرجل الشاحب يشاهد الحرب

في هجوم صباحـي
استولينا على حصن قديم
فرشت ارضه بطلقات فارغة لم تبرد بعد ٠
وفي قاعة رأيت في المرايا الكابية صورتـي
فاقتربت اتملاها في سكون ٠٠
معطف مفتوح ممزق الاطراف
جرح على الجبين ٠٠ فلم اعرف نفسي
وبعيدا في اعماق العينين رأيت نفسي القديمة
رأيت من كنته ٠٠
ومن لـن اكـون !

جندي سوفييتي

في المساء الخطر ، ذلك المساء الشبيه بغابة محشوة بالذئاب والظلمة يتعين فيه على رجل ان يدخل عاريا ومنفردا بين الاشجار والاشواك ٠٠ وعقله يعمل لا في خطط النجاة والعراك مع الوحش ٠ وانما في تذكر تفاصيل الوجوه التي يتركها خلفه الى الابد ، في المرأة والابناء والاصدقاء فـي الكلمات التي يحفظها الخائف والتعاويـذ ٠٠ في الادراك الآدمي البدائي الاول لحساسية اللحم الطري وهـو يتمـزق تحت الانياب وفي بطء ومراقبة جارحة تنوس الحياة امـام العين فيما يشبه الاغفاء المتريث ٠٠ وصولا الـى تلك العتبة التي لا يحكي عنها ابدا من يصل اليها ويدخل ، عتبـة المـوت ٠

٠٠ في ذلك المساء ٠

كانت السماء رمادية وواطئة ، وعلى امتداد خط الافق كانت تتضح نيران القتال الذي يدور في الجبهة ٠ وكان واضحا الشكل الذي تدور به المعارك ٠ فهناك الى يسار التل نيران كثيفة من الطرفين ٠ هناك الى اليمين طلقات متقطعة وخائرة وفي العمق تدوي قذائف المدفعية والصواريخ٠ هنا تقترب الاصوات والنيران والدخان ، في مكان اخر تبتعد ٠

وفي ذلك المساء كنا نرتقب وننتظر ٠ فمع اول ضوء سوف ينطلق هجوم اللواء الذي على هجومه تتوقف نتائج حاسمة لمعركة القطاع الشمالي من الجبهة ٠

كان حجم اللواء ، وشكل انتشاره وحركة الجنود للتحضير والتجهيز يثير المشاعر بالثقة ٠ الا ان البرد الذي تنتجه ، على عجل ، في المساء صخور « الجولان » السوداء المرصوفة كالقطيع ، كان يدخل الى القلب ويهزه فينفضح ما فيه من الخوف ، ويصل الى الاسنان والعظام فيرتجف الجنود تحت معاطفهم وتتراجع وجوههم الى الخلف لتغدو كوجوه الاطفال القلقين ٠ ثم تتناثر احاديث مقتضبة وهادئة ووجيزة بينهم ، لا احد يكمل جملة ، ولا احد يسترسل في حديث ، واذا ما حدث ذلك فهو على شكل تأمل خافت ، بصعوبة يصل الى الاخرين الا ان حرارة وعمقا كانا في كل كلمة تقال حتى فيما يتعلق بالمرح عن الخوف والشجاعة ٠ والمحصلة شيء فائق حقا : ان للجميع نفس المشاعر عن القيمة الاسطورية ، في تلك اللحظات للارض التي ستخوض فيها الدبابات ويجري عليها الدم ٠ ان شيئا يجعل هذه

الارض الجرداء ليس ميدانا لمعارك لكونها على الحدود ، وانما يجعلها ايضا حيوانا يتألم من وطـأة الهجـوم المعادي ويستغيث ، وان على الرجال ان يفتحـوا بوابـة الـدم لاغتسالها الضروري ، لتجفيـف استغاثـة طويلـة لهذا الحيوان الذي يتألم • غير ان « لأحمد ميرزا » رأيا اخر في هذه المسألة • هو يعتقد ان القتال ضروري وضار في وقـت معا ، ضروري لانه سيكون ، في كل اشكاله ، مظهرا لانقاذ شرف الجندي • وضار لانه سيكون بين عدوين معقديـن ووضع معقـد •

وللاستزادة من التفاصيل فاض في الشرح ولكنه كـان يوجـز :

يا سيدي •• اذا لم اقتل سو فيقتلني العدو فنحن في النهاية والبداية اصمان ولا نرى في المعركة وجوه بعضنـا • والعسكرية هي ان نقاتل واذا كنت مقاتلا شجاعا فيجـب ان لا تتدخل فيما تفعل ، بل ان تفعل ما تؤمر به بغض النظر عن الهدف والوسيلة وما تؤول اليه الامور • فاذا لم تبك امه عليه ، فان امي هي التي سوف تبكي !

والقتال ضار لان معـركتنا الان •• اقصد المعركة التي سوف اكون فردا في عداد قنابلها غدا صباحا •• غير متكافئة وتجعلني من الان ارتجف كما تجعل جنديا اخر في الطـرف المقابل يرتجف • كانت معرفتي بأحمد بسيطة للغايـة ، فأنا مراسل حربي وهو مقاتل • هو يقول ان المعركة التـي سنخوضها غدا خاسرة مئة بالمئة ، وانا اعجب لشجاعته • قاتل في عام ١٩٦٧ وعاد مشيا على الاقدام مـن « حـرش

مسعدة » حتى دمشق★ ٠

وبسهولة يستطيع احمد ان يدلي بأسبابه التي يعتقد انها خلف اية حرب خاسرة ، او معركـــة خاسرة ٠ وكـان متضايقاويائسا ٠ فجلسنا نحدق في نيران المدفعية البعيدة٠ ويشرح لي كيف سيدخل اللواء في المعركة ، واين سيتعرض للضربة القاسية ٠ وكيف سيؤثر ذلك على المجهود القتالي للقطاع بأكملـه ٠

قلت لاحمد : انا سأمضي هذا المساء في دمشق وسأكون هنا في الرابعة صباحا قبل بدء نشاط الطـــيران المعادي ٠ وسأرى معركة لوائكم غدا ، فهل تريد شيئا من دمشق ؟٠

اعطاني رسالة ومحفظة صغيرة وعنوان بيته ، ورقم هاتف احد اقاربه ٠ قال : فقط ارجو ان توصل هذه الرسالة لزوجتي وتعطيها هذه المحفظة ٠ سأكون ممنونا جـــدا لو استطعت ان تفعل ٠ واذا سألتك بالحاح ، فقل لها انــه بخير وهو ما يزال حيا يرزق ٠ انها مسكينة ، لن تصــدق احدا ولكن هذا يريحها قليلا ٠

عندما ودعت احمد عند باب سيارة الجيب العسكرية شد على يدي ٠ وقال : قد لا نلتقـــي ، ولكنك ابن حلال ، واتمنى ان انفد من هذه المعركة ، فاذا نفدنا ،فسأدعوك الى قريتي في الربيع وسأحكي لك اسرارا حقيقية عن كثير من الامور ٠ واذا لم انفد ، فسيموت معي الكثير مما ينبغي

★ حرش مسعدة : منطقـــة في الجولان قريبة من سهل الحولـــة .

ان يعرفه الاخرون • سيكون مؤسفا ، ولكن لا وقت لشيء اخر سوى هذه الدبابات •

وصلت الى دمشق متأخرا لان جنود الشرطة العسكرية اخبروني بسقوط طائرة قريبة في المنطقة ، فذهبنا نبحث عن مكان سقوطها وضاعت جهودنا سدى • وهكذا لم استطع البحث عن بيت احمد • فكلفت احد الزملاء بأن يفعل ذلك صباحا لانني سأ ور في الجبهة باكرا • وافهمته حساسية المسألة على النحو التالي : هذا الرجل قد يستشهد ومن الضروري ان نوصل الامانة لزوجته قبل ذلك • فأكد لي انه سو فلا يفعل شيئا - غدا - قبل ان يوصلها •

في صباح اليوم التالي كنا في منطقة تحشد اللواء ، وكانت محركات الدبابات تملأ المنطقة بالهدير • بحثت عن احمد فلم اجده وفي الساعة الثامنة تحرك اللواء باتجاه منطقة القتال وحلقت فوقه ثماني طائرات مقاتلة ، ثم بعد ساعة وعند وصوله الى خط القتال ابتدأت معركة رهيبة •• وانتهت بسرعة • في الساعة الواحدة كانت بقايا اللواء المدرع تنسحب ، وكانت الدبابات تحمل على ظهرها الجنود القتلى • سألت عن التفاصيل وخجلت ان اسأل عن احمد •• فقد كان هناك ما هو اكبر من شخص ، وافدح من موت • كانت هناك مجزرة ، ومعركة هامة اخفقت ، وفي كل مكان كنت اسمع انين الجرحى وهم يلفظون كلمة واحدة : ماء • دمعة ماء •

الرجل الشاحب لا ينسى !

مضت ستة اشهر على الحرب • وما تزال لدي رسالة الرجل وحافظة نقوده ، فعائلته ـ بعد استشهاده ـ سافرت والزميل الذي كلفته بايصال الامانة لم يوصلها • لم اجد احدا يعرفه في رقم الهاتف الذي اعطاني اياه في ذلك المساء من تشرين ربما كان الرقم خطأ ، ربما ترك قريبه الوظيفة ، لا ادري ماذا افعل • فلم يقل لي ما اسم قريته • وقيادة اللواء تغيرت ، وتغير اسم اللواء ومكان تمركزه • وكانت لدي ـ فوق ذلك الكثير من الاعمال ـ في فترة ما بعد الحرب •

طبعا ، كان من الممكن اعطاء هذه الاغراض للشرطة العسكرية ، لكنني كنت راغبا في التعرف على اسرة احمد وعلى مصيرها من بعده • على اطفاله وحياته الماضية وبصورة ما ، كنت اتوقع التعرف على اتجاه اسراره التي حدثني عنها •• والتي ماتت معه •

بعد انسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها في الحرب ، دخلنا الىمناطق القتال ، وكانت ما تزال ساحة

المعركة محتفظة بديكورها الخاص ، لا ينقص منه شيء سوى رائحة البارود والجثث • الدبابات المحطمة ، والبيوت المهدمة ، بقايا الزيوت والفحم ، الطلقات الفارغة والشظايا • الخنادق وخوذات الجنود • الغام ، وسيارات ملأى بالذخيرة المتفحمة ، اشجار ممزقة بالقنابل ، كان ذلك في معظم مناطق القتال وخاصة في القطاع الشمالي من

الجبهـــة ٠

كنا نتجول صامتين وغاضبين في مواقع التحصينـات المعادية ، ونتفرج على الدبابات وكيفية اصابتها ، عنـدما اصطدمت قدمـي بجثـة ، ثم شاهـدت ثـلاث جثث اخرى بجوارها ، كان الجنود الاربعة ما يزالون في لباسهم الكاكي ٠ جف اللحم من حرارة الستة اشهر بعد الحرب ٠ وتبقي العظم والجمجمـة ، كانـت عظـام ارجلهـم مـا تـزال في الاحذية العسكرية ٠ وبجوارهم مسدسات صدئة ومطرات ماء ، كان واضحا ان دبابتهم اصيبت وعندما خرجوا منها حصدتهم الرشاشات فماتوا معا في بقعة واحدة مساحتها عشرة امتار، ثم نبت عشب الـربيع ويبس عشب الربيع حولهم ٠٠ وبين اصابعهم ٠ فتشت في جيوبهم وقرأنا هوياتهم العسكرية ٠ كان « احمد ميرزا » واحدا من هؤلاء الاربعة ٠ كانت محتويات جيوبه خمس ليرات ٠ صورة عائلية مع زوجته وطفليه وثلاث قسائم للحصول على كاز ، ومحرمة بيضاء وملقط شعر ٠ الجنود الاخرون لم يكن في جيوبهم اية نقود ٠ كان في جيب احدهم قداحة فتيل ، وباكيت خصوصي للجيش ورسـالة قديمة امحت كتابتهـا ٠ في جيـب الجنـدي الرابـع واسمه « سليمان » طلب انهاء خدمة الاحتياط ، وصور مختلفة مع زملاء ومع الاسرة ٠

التقطـت صـورا للجثـث الاربعـة واخبرنـا الشرطـة العسكرية كي تنقلهم ثم اعطيناهم الاغراض العائدة لهم ٠٠ لكنني احتفظت بالاشياء التي تخص « احمد ميرزا » ٠

وهكذا فلدي الان مزيد من '' انات لعائلة احمد ميرزا

التي لا اعرف ·· حتى الان كيف التقيها !

لدي صورة جثة احمد ، وفي القسم العلوي منها صورته حيا ، حيث سيبقى شابا ومبتسما فيها الى الابد !

هذا الـرجل ·· الشيطان ، وحده هو الذي ارسله الي ·

ان حضوره للحظة في الذاكرة يجعل كل الاشياء حـولي بلون الرماد · فهو يبعثر الاوراق بين الحروف التي اكتبهـا ويكسر منافض السجائر ، وكؤوس العرق ، ويخنق صوت الراديـو ·

مرة اخفيت صورتـه « صورة الجثة وصورة الوجه » في مكان ما على السقيفه · لكن عبثا ، محاولات من هذا النوع تنتهي في كل مرة الى السلم فالسقيفه فالصورة ·· وازيها للاصدقاء ثم اتحدث عنه ·

لقد فاتني أن اقول ·· انني اكملت حياته التـــي لا معلومات لدي عنها ·· اكملتها اعتباطا ، من حيوات مجموعة كبيرة من الجنود الذيـن اعرفهـم ، والذيـن قتلـوا في تلك الحرب · فصرت اعرف احمـد كثـيرا وصـار يخصني وهو الميت ، كحياة حقيقية قائمة وبيننا تقضي اوقاتا عديدة · ربما كانت المشكلة انني لا اريد ان انساه لاننـــي غدرت بامانته بالرغم مني · ولكن الحقيقـة : هـــو مغدور وليس شهيدا هو مشكلة وليس شخصا هو سر وليس جنديا · كيف اقول اشياء مقنعة اكثر عن هذه العلاقة الباهتة المضجــرة المقلقة الموجعة بــه ؟

لا ادري !!·

□

البارحة كنت اشتري حطبا ، فقال لي الحطاب : هـل تعرف احدا في لبنـان ،

ـ لمـــاذا ؟

ـ اخي اختطفه الكتائب هناك ، ومنذ سبعة اشهر ، لم يعد حتى الان ، وقد انهى خدمته العسكرية ، وخطبنا له ، وجهزنا العرس ، ولا نعرف ماذا نفعل ؟

هل تعرف احدا في لبنان ،

وأردت ان اصرخ :

« لا اعرف احدا في هذا العالم .. »

الوطـــن للجميع ...
والعم لا يشذ عن القـــاعدة !

اذا أردت ألا تخسر الحصان فلا تبخل بالرسن
الجيد الذي يمنعه من الهرب
« الدولة »

عاد العم « أبو سالم » من الزحام حول الطائرة الضخمة ضعيفا في الصبر والعينين • كان يتعكز على عصاه العتيقة ، ويسترد من فتحة القمباز بعض الهواء لينتعش •

□

ثم وصل العم « أبو سالم » الى الباب النهائي للمطار • وتلفت : بشر مثل البحر ، ولا يرى احدا • ابنه ضاع في الزحام ، وهو اليوم ، وأمس •• وفي هذه اللحظة ضعيف في الجغرافيا وفي الحزن !

□

••• ثم ، دمشق احتوت هذا الانسان المكسور • اخذته من شارع الى شارع ، ومن يد الى لسان • سؤال وجواب • سؤال وسكوت • سكوت وسكوت وسكوت • استحالت تلك الظهيرة الى صحراوين : في الارض واحدة يدب عليها البشر ، والاخرى في السماء يجري ماء جاف ومقدس واشياء كثيرة • ولا رحمة !

□

•• ثم مشى العم « أبو سالم » الى الكاراج ليمضي ـ وحيدا ـ الى حيث جاء • وفي اخر مقعد في باص عتيق وقذر اتكأت عروقه النافرة على الخدين • كان الراديو وصوت الاطفال ومعاون السائق يجرون ذقن العجوز الى مزيد من الضعف في التاريخ والسلوان !

- ٣ -

•• والعم « أبو سالم » تعرفه تركيا • فربما ، ما يزال في سجلات احتفظت بها « الاستانة » اسم شاب من العرب ، اشقر وله زند لا يلوى • فقره واهله وتاريخ بلده المقدس ساقوه الى سفر بعيد بنصف قميص ، وبلا زواده ، وحملوه فيما بعد خنجرا وبندقية ونسقا من الاعداء ••

□

طالت الغربة •

طالت الحروب •

وكان عليه أن يقاتل اناسا لا يعرفهم • ومن اجل شيء لا يعرفه • يكشر الضابط في وجهه فيرتجف العالم مثل حصان مذعور ، ويفهم الجميع شيئا واحدا بوضوح : « ماذا وراءكم ؟ اما القتال واما القتال » وكانوا مثلما يفعل اليائسون يطلبون النصر بالهزيمة والنجاة بالموت !

□

وقد انهزمت « الاستانة » •

حفرت لنفسها حفرا في كل البلاد . كان البارود الغربي اقوى من الفحم التركي ، والخردق الرديء .

.. وما زال جنود تلك الايام يقطعون صحراء الـربع الخالي ، وفيافي حوران ، وجـرود عسير ونجـران مشيا حتى يومنا هذا .. علهم يصلون الى الاهل ، ويركعون قبـل الموت ، في حضن ما على رائحة وطن .. صغير وبعيد وصامت!

- ٣ -

يا عم .. يا عم . لقد وصلنا .

قال معاون الباص ، وأمسك بكيس ابي سالم وانزله بهدوء شديد . كان ثقيلا . فتمطى العجوز . ضاحكا قال : وصلنا ؟

أنزل عكازه . وضع قدمه على الارض . تلفت كثيرا : بيوت صفراء وبيضاء . رعاة وغروب . وهذا السكـون الغريب الشامل : وصلنا ؟

تلوح « ام سالم » بجسدها الناحل من بعيد ، تهذي بكل القامة المنحنية وهي تخفق ، يسرع قلبها ودموعها . وكانت تعرف أن أبا سالم قد عاد وحيدا . لا سالم عاد معه ولا أحمـد !

□

لم تولول أم سالم أبـدا !

كانت مثل شجرة مقصوفة من فوق ومتروكه في افـق

رمادي ٠ ثم تلين قليلا وتقترب خائفة وضعيفة ٠ وترى عيني ابي سالم الزرقاوين الواسعتين ، فتغمض نفسها ببطء ، وعندما تفتحهما كانت ترى بوضوح أن في العين اليمنى ولدا يافعا في الشام وفي العين اليسرى ولدا ميتا في الجولان ٠

كان أبو سالم ضعيفا ومحبا ٠ ام سالم حب أكيد واخضر ٠ شيء كوني ٠ مبخرة حزينة على شرفة مزار ٠ واكثر من ذلك بكثير ٠

ام سالم انتظرت ابنها ليعود ٠ اوهموها انه في الاسر وقد رجع من رجع من الاسرى ٠ وما لها شيء سوى انها تأكدت من موت أحمد ٠٠ احمد الغالي ، الذي كنزته لم تنته من مغزلها بعد ، وصوته المخاصم الضاحك قريب من الجدران والهواء ٠

□

« ام سالم ٠٠ اه ما أكبر تلك الطيارات
وما أكثر البشر المنتظرين أولادهم !! »

ـ ٤ ـ

صباح القرية هذا اليوم كان شمسا ودركا ٠

ـ لا داعي لتطويق القرية ٠

قال المساعد أول ٠

٠٠ ولذا ـ سيدي ـ يكفي شرطيان ٠ دورية عادية حتى غير مسلحة ٠

وهمس لنفسه :

شرطيان ، بسلاح ، وأسوق هذا البلد ، فرقع هذا السوط ليروا جدية ما يحدث بعدها ٠٠ ثم تأمل : تنفر من تحت جلودهم كل « تواقيع » وموافقات الارض ٠ يبصمون واحدا ٠٠ واحدا ٠٠ حتى تنتهي هذه الملايين ، على ورقة حكم حتى باعدامهم !

كان على الدرك أن يجلبوا نصف القرية للتنازل عن الارض المباعة من ملاك قديم الى رأسمالي جديد !

□

٠٠وحمحمت الخيل تحت ضغط اللجام ٠

وترجل الفرسان بطريقة فخورة ٠ شيء من الاحذية كان يلمع ، والعرق على كل تلك الاراضي المزروعة ٠٠ صار أخضر ولامعا ٠

الشرطي الاول والثاني والثالث انتابهم ضعف في البطش ٠٠ فنكسوا رؤوسهم ٠

« غدا من كل بد تحضرون الى المخفر ٠٠ مفهوم ؟

يا « أبو سالم » انت المسؤول ٠ غدا لا تجبرونا على المجيء مرة اخرى ٠٠ انها قضية تخصكم ٠ »

□

تأتي ام سالم بالزوادة ـ كما فعلت قبل خمسين عاما مضت ٠ تحشو له علبة التبغ ، وتزنر عنقه النحيل بقماش أخضر من الاولياء ٠ تنفض غبرة اكمامه ، تهذي قامتها

وهي تحوم حوله حتى نهاية البيوت ، وتدعو :

« عسى أن يكون عندهم خبر من أحمد ، وتكون خطوة عزيزة لخيل الدرك الوطني »

... ويغيب ابو سالم

يغيب ويطيل الغياب . صارت ام سالم مثل بيرق على طريق عودة العجوز ، تخفق في الليل والنهار .. وتتمزق .

- ٥ -

محضر ضبط الشرطة

« .. أنا الموقع أدناه - بصما بابهامي الايسر - اقر واعترف بأن لا علاقة لي ، ولا دعوى في اي حال من الاحوال ، على اي مخلق على وجه الارض بخصوص الارض التي ازرعها والتي تعود ملكيتها الى « محمد شفيق الحماد » التي الت ملكيتها حاليا الى السيد « مرقص النمرود » . وقد توجب علي - بما انني مزارع بالمرابعة منذ عشرين سنة - أن اسلم الدوا بسالمة والبيوت مطينة الى المالك الجديد ، مع تصفية حسا بالمحاصيل - الصيفي منها والشتوي - بحسب تقدير الخبراء لقيمة الزرع .. سلفا للمالك الجديد السيد النمرود .

وعليه أرقع مع ..

احترامي لشهود الحال :

احمد المعطي و سليمان خانكان

- ٦ -

وأبو سالم يخرج الان من المخفر والسجن والمشفى دفعة واحدة (فهو لم يضع ابهامه الايسر بسهولة . يبحث

عن الدرب الى القرية كأنه لاول مرة يخطو عليه خطـــوة واحدة . يمشي ثقيلا ثقيلا . وعندما يصل الى القرية لا يجد أحدا بانتظاره . يمضي في الحارة الاولى ، والثانيـة والثالثة .. فلا يجد احدا . نوم واحد منخفض يغطي سمـاء الدنيا بغيم المساء وسكونه وكآبته .)

على باب البيت تغفو ام سالم : كومة من الليل ، هالكة وهامدة . يقترب ابو سالم . ينتصب وجهه كأنما يلمو على نحو واضح الى الشباب يدرك انه ليس ضعيفا وانما لا شيء يقوى ، من حوله ، على اسناد هذا الجذع الكبير الثخين الممتد على شكل دنيا واسعة هي جسده .. هذه الدنيا التي لا يعرف في أرجائها ـ مكانا يستتر فيه الشيب .. في اخر العمر .

- ٧ -

يقول أبو سالم لزوجته :

ساعـديني .

تنهض .

يحملان معا فأسا ورفشا . وفي الحديقة الصغيرة أمـام المنزل يحفران قبرين متجاورين .

عندما ينتهيان ، يجلس أبو سالم . بصورة أصح ـ يهطل ـ على الارض . ويقول : من حقهما أن يدفنا هنا . هذا لاحمد . وهذا لسالم !

ام سالم تبكي .

أبو سالم يراه الاخرون .. كأنما على وشك التحول الى شخص يبكي .. مثل نهر مديد !

ـ دمشق ـ ٢٠-١-١٩٧٧

هذا الصباح الماطر .. الجليل

نقرأ في الكتب أن الصباح الماطر شيء جميل : تتكون في مدى السماء تلك الغيوم الراحلة ، تعلو وتنخفض ٠٠ ثم تهطل ٠ تضطرب الحركة في الطبيعة والبشر ٠ ان الصباح الماطر في أي فصل كان ، يوحي بمقدم الربيع ٠ والربيع في الكتب شيء جميل ٠٠ فصل أخضر ، وحيوي ٠ زمن احتباس الخير على شكل جنين في تكوين الارض والشجر ٠ الارض والشجر في الكتب شيء جميل فمنهما واليهما تعود خمسة أسداس الحركة في الطبيعة والانسان ٠٠ والانسان في الكتب شيء جميل فهو أحسن الكائنات وأفضل المخلوقات ٠٠ الخ ٠

نقرأ في الكتب ٠ ونقرأ في الكتب ٠ ونقرأ في الكتب ٠

□

كان الصباح ماطرا ٠ ومن اللحظة الاولى ، عندما فتحت عيني من نو مهرهق ، وأزحت الستارة عن النافذة الصغيرة

التي لا تطـل على شيء سوى بقعة داكنـــة من عمارة مهدومة ، كنت أحس بالضيق وبشيء ما يشبه الغضب ٠ فالصباح كان ماطرا وغير جميل ، ولا بد أن تكون الارض موحلة وقذرة ، والناس مشمئزون من التخريبات الصغيرة التي يخلفها المطر على اعمالهم وترتيبات حركتهم ٠ وفكرت بالمزاج العاطفي الذي يختزن ، ولا بد ، صورة ناعمة لصباح جميل ، في يوم ما مضى وكان فيه فرق ما بين « جميـــل وقبيح» من وجهة نظر الامل والتفتح الذاتي علـى الحياة ٠ يوم ما من تلك الايام التي كان فيها الانتصار هو الامـل بالانتصار ، والحب هو الامل بالحب ، والاستقرار النفسي والمادي هو ٠٠ أيضا ذلك الامل بالاستقرار النفسي والمادي ٠ حينذاك ، وحيثما تحرك دولاب الطقس في هذه الطبيعـة الفسيحة في هذا الشرق ، كانت زهرات قلوبنا تتفتح من قلب نوم بائس ، في غرف رطبة أو محرقة ، في حارات قذرة أو مزدحمة بالضجيج ٠٠ كانت تتفتح فـي اعـلانات اليوم الجميل : ممطرا كان أو غير ممطر ٠

وهذا الصباح الماطر في هذا الشتاء ، لم يكن قط غير حقل مديد ، كأنه الصحراء ، من آنية زهور محطمة ٠ وان هذه الكآبة الشاملة ، كأنها خيمة ممزقة تغطي العالم ، لم تكن سوى جزء من روحي المنهوكة المبعثرة !

- ٢ -

٠٠ وهكذا ، أرجو ان يكون مفهوما ، أن حالة الطقس وحدها ، كاطار خارجي ، ليست المســؤولة عما حدث ،

وحدود المسؤولية كاتجاه ، لا حدود لها • وقناعتي أنا حتى آخر لحظة • حتى هذه اللحظة بالذات، حيث اكتب اعترافاتي دون أن يطلب احد مني ذلك ، أي أحد ، ان « المسؤول أو المسؤولية » ـ استعمل الكلمتين باعتبارهما تعنيان الشيء نفسه ـ لا يمكن بحال تحديد جهتهما تماما ـ كما تحدد أنت بالبوصلة الجنوب لان ابرتها اعطتك الشمال الجغرافي • بطبيعة الحال سيعود ذلك الى أن المسؤولية مفهوم له عدة مستويات وأبعاد •

مفهوم اجتماعي ، في حين أن الآخرين ـ والذين يعنيهم الامر ، أي الامر الذي حدث ـ يضعون للمسؤولية ذلك المستوى أو البعد القانوني وحسب • ومن خلاله يلبسون الجلاليب السوداء على منصة مرتفعة ، يحدقون بي وبالحضور والشهداء ، يضربون بالقبضات على الطاولة ، ثم يصطنعون الوقار الشديد ، تلوح الايدي في الهواء كأنها تخطف أرواحا هائمة في ذرات الغبار الموجود في حزمة الشمس من النافذة •• يخطبون ، كأنهم أمام جماهير يجب أن تقتنع ، يروزون بالعين اليمنى بندقية الحارس على الباب وبالعين اليسرى يتلفتون الي أنا • أنا الكائن الصغير الموضوع أمام كل هذا الطقس المنظم من أجل كلمة واغلاق الباب الحديدي وراءها وينتهي أمر ما من الامور التي تحدث في هذا الكون الفسيح • ولقد كان وجهي حينذاك مثل مرايا مكسورة ، فيها تقاطعت وتشكلت مختلف الوجوه والعيون والاصابع على نحو مشوه : متطاول ، وعرضاني • وبصعوبة بدأت أمنع نفسي من رؤية أشياء لا ترى عادة : جهاز هضم

لمتفرج رث ينعكس على هذه المرايا ، بثور على اعضاء تناسلية لرجل آخر ، بقع داكنة على رئة فتاة ٠ وانها للمرة الاولى التي أحسست فيها بأنني غير متهم بالخطر على أمن المجتمع (الصيغة التي يرددونها) ٠٠ كانت هذه الصيغة غير موجودة فعلا في ملامح المتفرجين المنكسرة على مرايا وجهي المتكسرة ٠

حسنا ، أعرف انكم مستعجلون وأمامكم أعمال كثيرة وانكم ملولون بعض الشيء ، خاصة وانه صباح ماطر أيضا هذا الذي يجعلكم تضطربون قليلا ، وتتغير - رغما عنكم - بعض الترتيبات ٠

أعرف أيضا انه لا توجد ساعة واحدة بدون قصص ، فالقصص منذ الازل ذات مصدر واحد : هو الحركة وانكم تتحركون وتصطدمون لانهم يتحركون أيضا ٠ الا أن قصصا كثيرة - غير عادية هي التي توقف بؤبؤ العين في محاجركم - أيضا تحدث ، تتوقفون عندها ذلك التوقف الذي يكاد أن يوحي بأنه تسمر دائم لا خطوة بعدها ، ولكنكم تتابعون بعد لحظة ، لان على الحركة أن تخلق القصص الاخرى ٠٠ العادي منها والاستثنائي ٠ وهكذا ٠٠ وهكذا !

□

والآن الى القصة كما حدثت :

(ملاحظة) : « أرجو مساعدتي في مسألة التواريخ الرئيسية ، وذلك بأن يتذكر كل منكم ما الذي حدث معه فيها ، فأنا ما أزال واحدا منكم ٠٠

وكان محتملا جدا أن يكون ، بدلا مني ، أي شخص آخر منكم بالذات ٠ »

في يوم ١٩٧٧/١١/٢٢ استيقظت متأخــرا ، وكالعادة كانت دمشق قد أنجزت الكثير من الارباح ابان نومي ٠ قمت بأعمال التنظيف اللازمة : حلاقة ، غســـيل ، تمشيط ، مخمضة ، تنظيف أسنان ٠ وذهبت بالتاكسي الى العمل ٠ عند باب المؤسسة تشاورت مع السائق فهو يريد ٤ ليرات وانا أصر على ثلاث ٠٠ احتدمت الامور فأفهمني اننـــي « نــوري » رغــم ما يبدو عليك مــن مظاهر ٠ والسبب انك تجادل من أجل ليرة ٠ في حين انني ، عشرات المرات ، حصلت على ٥٠ ليرة وكنت أطلب عشرة من السعوديين والكويتيين وأبناء الخليج ٠

في المكتب تناولت الصحف ٠ وقرأت العناوين الرئيسية وبعض التعليقات على الاحـــداث والخاطرات الادبيــة ٠ واستوقفني كثيرا ما يلي :

* « غادر السادات اسرائيل محملا بأربع هدايا . واحدة من رئيس الدولة افرام كاتزير ، عبارة عن ثلاث قرب صغيرة عتيقة من عهد الآباء للشعب اليهودي وشعب اسرائيل » ٠

* « المذيع الاسرائيلي الذي كان ينقل الاحتفال بتوديع السادات قال التالي : « أربع طائرات « كفير» اسرائيلية شبيهة بالطائرات التي كانت تقصف سكان جنوب لبنان منذ اسبوعين وربما كانت هي نفسها ٠٠ رافقت طائرة السادات داخل المجال الجوي الاسرائيلي في أثناء عودته الى

القـاهرة ٠٠ » ٠

□

* استقبال « شعبي » للسادات في القاهرة والمذيع يتلعثـم :

« ها هي الجماهير تستقبله ٠٠ تؤازره ، ليعبر بهـا دائما حيث كان من النصر الى الهزيمة ٠ هكذا كان قرار الحرب عبر بهم من النصر الى الهزيمة ويعبر بهم اليوم من الحرب الى السـلام ، من الترقب والقلق الى الامـن والطمأنينة » ٠

لقطات من زيارة السادات لاسرائيل ٠ جريدة السفير

« قامت اذاعة اسرائيل ، نقلا عن اذاعة القـاهرة ببث وقائع استقبال السادات ٠ قال المذيع :

لقد ذهب السادات ليؤمن اعتراف « العدو » واستدرك فتابع : ليؤمن اعتراف « اسرائيل » «بالكيان الفلسطيني ٠»

لكن الاذاعة الاسرائيلية لم تغفر هذا الخطأ فقطعت البث تحسبا لأخطاء أخرى مشابهة ٠

قال أحد المذيعين المصريين : ان عدد المواطنين الذين خرجوا لاستقبال السادات يفوق الـ ٨ ملايين شخص ٠ وقال مذيع آخر ان أعدادا كبيرة من المصريين دفعت القـروش القليلة التي تملكها ثمنا لباقات ورد تقدمها الى السادات»٠

□

يوم ٠٠/١١/١٩٧٧ قالت لي صديقتي انها ملت اللقاءات

المتكررة في البيت وانها تضطر للاستماع الى أحاديث أسرتي المملة عن صعوبات ومشاكل الحياة ٠ وعن الخلافات بين أمي، التي تحب الحكومة ، وأخي الاصغر الذي لا يحبها ٠ وأكدت على أن علاقتنا خالية من التنوع ، وقد يصيبها الجمود والجمود يقود الى البرود فالى النهاية ، وانها حريصة على علاقتنا وهذا ما يدفعها الى مناقشة الموضوع ٠٠٠ وقد صدعت رأسي ٠ فقد كنت أقوم بوضع كلمة أخرى مقابل كل كلمة تقولها ٠٠ وتكلمت باختصار ـ موضحا أن ما تسمعه من ثرثرات في البيت ستجده مشكلات في الطريق ، وان المتعة الجزئية في البيت ستجدها تنغيصا كليا في المحلات العامة ٠ ولقد صدعت رأس نفسي أيضا بهذه التبريرات ٠ وقررنا معا أن نحاول الخروج ٠ الى أين ؟ مشوار ، ثم كأس في مكان عام ثم عودة الى البيت ٠

مشينا في الطريق ٠ لم نتخذ وضع العشاق، لانني أعتبر ذلك من جهتي استعراض حالة غير موجودة فعلا من قبل الذين يفعلونها ، خاصة اذا كانوا في علاقة صداقة مستمرة منذ وقت ٠٠ ومع ذلك فقد سمعنا كلاما قبيحا من بعض الشلل المتسكعة ٠

وصلنا الى حديقة عامة ، جلسنا على مقعد خال ، فحام حولنا شخصان تعمدا أن تبدو عليهما آثار الوزن الوظيفي وتوقعت أن يسألانا عن الهويات ٠ وقلت في نفسي: أمر عادي فلا تنزعج ٠ ثم تجاوزنا الاثنان مرة أخرى ، في تمهل ، وقد كشف أحدهما عن سلاحه فتوقعت ان الامر لا يعدو أن يكون افهاما لنا بأن لا تحاولا شيئا ما ٠٠ فالسلطة

موجودة في كل مكان في الوطن العربي والامن لا بد أن يظل مصـانا !

قالت البنت الصديقة : لماذا لا تتكلم ؟ وتكلمت بحدة عن النقد الادبي وأن ثمة أوباشا في الحياة الثقافية ، وان « فلانا وفلانا » يجب صعفهما . ورفس الاطقم الجديدة التي يلبسانها ، وانني ربما استقلت من عملي ، اذ لم أعـد أستطيع أن احتمل أكثر ، بعض الموظفين التافهين الذين لا عمل لهم سوى تذكيرنا بالوضع التافه الذي آلت اليـه الوظائف ٠٠ ثم أدركت انني غاضب من شيء وانني أعبر عن غضبي من شيء آخر ٠ فاقترحت أن نمشي ٠ ولحقنا على مسافة قصيرة الرجلان !

في مقهى قريب جلسنا ٠ جاء النادل وقال : أمركما ٠ فقلنا : نبيذ ٠ عدد انواعا فذكرنا اسما ٠٠ نبيذ مز ٠ قال . أمركما ٠ ثم جاء بالزجاجة وقام بفتحها بطقوس معروفة ٠ لفها بفوطة بيضاء وصب قليلا في كاس ٠٠ وطلب أن أذوقها (على طريقة الاجانب) سلفا كنت أحضر هزة رأسي مع حركة تلمظ أن « طيب » ٠ لكنني قلت هذا حلو ، ونحن طلبنا مز ٠ فقال لا ٠ حلو ٠ قلنا لا ٠ مز ٠ ودفعنا الثمن !! حسنا يا صديقتي ٠٠ أيهما أفضل ، البيت أم المشوار ؟ سكتت ، وكانت حزينة مثل القطط في الشتاء ، وكنت متوترا وجسـدي يؤلمني ، وراســي يحكني ، فهرشت طــوال الطـريق ٠

□

يوم ؟/١١/١٩٧٧

سافرت الى لبنان • كان لي غايتان : ان أرى لبنان للمرة الاولى بعد الحرب الاهلية • وأن أشتري طقم جينز وبعض الكتب التي لا نراها في أسواقنا •

في طريق العودة جرى التفتيش المعتاد عند الجمارك والامن العام • وبعد كيلومتر جرى تفتيش آخر • كان في السيارة راكبان سعوديان حجزا المقعد الخلفي • وراكب فلسطيني وأنا •• أثناء التفتيش عثر رجل الشرطة على علبة دخان /١٠/ باكيتات مارلبورو • فقرر مصادرتها وسأل لمن ؟ فقلت لي • هويتك فحاولت أن أقنعه بأن الامر لا يستحق ذلك وان سيجارتي المفضلة غير موجودة في السوق • تجادلنا • أصر على المصادرة ثم بدأ يغضب وظيفيا وينتوزني وكي يفش غضبه أخرج علبة سجائره من جيب السترة من نوع مارلبورو • أشعل سيجارة وقلت له : ها أنت تدخن مهربات أجنبية ، فقال : ما أنت اللي بتحاسبني• وصادر الدخان ودفعت الغرامة ثم ندمت لانني اصطحبت هذا الدخان اللعين • مضت السيارة •• ولم يتحدث أحد من الركاب مع الأخر ، سوى اننا تبادلنا نظرات • من جهتي لم تكن نظرات ودية !•

□

يوم ٠٠٠/١١/١٩٧٧ •

قمت من النوم باكرا • بل بصورة أدق اقاموني من النوم • فقد ضربني احدهم بسيخ حديد على كتفي

فانتفضت ، لأجد انني موجوع حقا في العظم وان قلبي يؤلمني كما تؤلم الاضراس ، وفتحت النافذة لأجد تلك البقعة الداكنة من حائط مهدوم ·· وان الصباح الماطر يهز الغيوم والفصول والكآبة ·

فتحت « الراديو » فكان المذيع يتبادل كلاما سخيفا عن الورد مع مذيعه ، قائلا : الورد جميل لان عمره قصير ، وقائلة : وان الحياة جميلة لان الموت هو النهاية ، وقائلا عزيزي المستمع ··-وتقول المذيعة عزيزتي المستمعة : في الصباح يجب أن يتفاءل الانسان ويكون مشرقا وان الابتسامة وردة ··· وغيرت المحطة · قال المذيع الاسرائيلي: والآن عزيزي المستمع وعزيزتي المستمعة اليكم هذه التأملات الوردية :

« الجبان يموت عشرات السنين قبل موته ، والشجاع يعيش عشرات السنين بعد موته » ثم موسيقى ناعمة ·

و « السماء لا تساعد من لا يساعد نفسه ·· » ثم موسيقى ناعمة و « اذا كنت حجرا فكن ممغنطا · واذا كنت شابا فكن حساسا ·· واذا كنت رجلا فكن حبا ! » ·

وبعد فصل غنائي ·· أظنه ، أغنية · « اشتقتلك ·· » للمرحوم فريد الاطرش · دق جرس التليفون في الاستوديو·· أجاب المذيع :

ـ نعم ·
ـ قال الطرف الآخر :
ـ الاستاذ زكي « ستوديو رقم «أ» » ؟

ـ مين بيتكلم ؟
ـ هون عبد الحي نعوم ، من القدس ٠
ـ خير يا أخ عبد الحي ٠

ـ في يوم ١٩٧٧/١١/٢٠ دهست بنتي الصغيرة سيارة فورد صفراء رقم سبعة ستة ثلاثة سبعة سبعة سبعة ٠٠ نقلت للمستشفى وبعد أن عالجوها طالبوني بالاجرة فدفعت ثم سألت الشرطة عن اسم السائق فقالوا اسأل قسم شرطة رام الله ٠ سألت قالوا اسأل شرطة نابلس ، سألت قالوا اسأل شرطة تل ابيب ٠ سألت قالوا ارجع لقسم الشرطة المركزية في القدس ٠ تعبت يا أستاذ زكي من السؤال هون وهون فبترجاك ايش اعمل ؟

قاطع المذيع : يا عبد الحي ٠٠ ايش الرقم ؟٠

وقال عبد الحي : سبعة ستة ٠٠٠ الخ ٠

فقال المذيع : يا عبد الحي ٠ وكلّ محامي وهو يساعدك ، واحنا من جهتنا نسأل شرطة القدس ٠٠ واتكل على الله ٠٠

وانبعثت أغنية : « أنا ما سكرت الباب الباب تسكّر لحالو ٠٠ والهوى سكر الباب ٠٠٠ »

وتخفت الموسيقى والاغنية ليرن الهاتف من جديد ٠

ـ ألو ٠٠ استاذ زكي ؟
ـ ألو ٠٠ نعم ٠
ـ أنا محمد أبو نكله من رام الله ٠ ممكن أسألك سؤال ؟
ـ نعم ٠٠ أهلا وسهلا ٠٠ تفضل يا محمد ايش سؤالك ؟

- هل تعتقد أن بقية الرؤساء العرب سيزورون اسرائيل كما فعل الرئيس أنور السادات ؟

- يا أخ محمد أنت سامعني ؟ لقد قال رئيس الوزراء ان الدعوة مفتوحة لكل رئيس عربي لزيارة البلاد ٠ وانه مستعد للذهاب للقاء أي منهم في أية عاصمة يختارون ٠ ونعتقد أن الباب الذي فتحه الرئيس الشجاع أنور السادات ، لن يغلق بعد اليوم ٠٠ ان السلام حالة يجب على الجميع التضحية من أجل الوصول اليها بكل الحساسيات والعنجهيات مهما كانت ٠٠ وندعو الى الله أن يتحقق ٠

موسيقى هادئة ٠٠٠ »

- حولت ابرة الراديو الى محطة أخرى فكانت تبث موجزا لاهم الانباء ٠٠ قالت المحطة : ان اجتماعا ثلاثيا سوف يعقد في الرباط عاصمة المغرب بين الرئيس السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلي مناحم بيغن والحسن الثاني ملك المغرب ٠٠ وقد تلقى مناحيم بيغن دعوة خاصة لزيارة المغرب ٠٠ ومن الجدير بالذكر ان المغرب كان طوال الفترة الماضية عرابا للاتصالات السرية التي تمت بين مسؤولين عرب ومسؤولين اسرائيليين ، فموشيه دايان التقى في العاصمة المغربية عدة لقاءات مع السيد حسن التهامي نائب رئيس الوزراء المصري وأجريا مباحثات ودية ٠

أقفلت الراديو ٠ واسندت رأسي الى الوراء ، محدقا بالبقعة الداكنة من حائط البناية المهدوم ٠

انتبهت الى أن البقعة هذه تشكل - بصورة واضحة -

لوحة ضخمة ـ لوحش اسطوري كالذي نراه في أفلام الرعب ، يقطر الدم من كفيه ، وذيله يرتفع ليشكل عمودا على شكل مشنقـة ٠

□

نهضت الى ثيابي المعلقة ارتديتها بسـ ـنة ، ثم جهزت كل ما يلزم من العدة للصـــيد ٠٠ الطلقات ، الحقيبة ، البندقية ٠٠ مطرة الماء ، وسندويشات صغيرة ونظرت الى الساعة ٠٠ فاكتشفت انني تأخرت عن الموعد بعض الشيء ٠٠ فهبطت الدرج بسرعة وفتحت باب المنزل ٠٠ سويت قبعتي قليلا ٠٠ تلفت الى الشبابيك المجاورة ٠٠ ثـم الى اليسار قليلا ٠٠ كان هناك رجلان يبولان على جدار البيت ٠ واحد منهما قرب الباب تماما ٠

قلت ساخرا : « بونجور » مبكرين على البيرة ٠

ارتبك أحدهما ، كـان قصير القامـة وأنيقا ٠ بينما لم يجب الثاني وتابعا العملية بتلذذ ٠

أضفت : انتما بلا ذوق ، هل الدنيا خلت من المراحيض حتى تأتيا الى حائط بيتنا وتفعلاها ؟

تلفت الرجل الطويل وهو يسوي بنطاله بكسل ٠

وقال : « أولا هذب ألفاظك ٠ ثانيا لا يوجد مراحيض ، ثالثا ٠٠٠ معك رخصة حمل سلاح ؟ »

فوجئت تماما بالاجوبة ٠ وبدأت أحس بالغضب علـى شكل دم يغلي في جبيني فقلت على الفور : « شخـاخ ٠٠ وتحاسب ؟ »

وعلى الفور كان الرجل يتقدم مني بقوة ، والاخر ينهي ما يفعل ·· ويتقدم · واتضح لي أن في الامر لعبا بأكثر من الوسائل المعروفة : الخبط واللبط ، وغير ذلك · فتراجعت بضع خطوات حتى أصبحت أمام البا بتماما· وظلا يتقدمان، والرجل الطويل يشدد على كلماته : « هات رخصة حمل السلاح ان كانت معك » ثم ··

·· لا ادري كيف كانت الحال ؟ · كيف شعرت أن الدم الذي يغلي في جبيني قد صار يسيل على عيني حتى غطاهما تماما ولم أعد أرى سوى شبحين يتطاولان ويتقدمان والمسافة تقصر ··

·· ثم طلقة هنا وطلقة هناك ، برك دم ·

جثتان · اربعة أعين مفتوحة · وحل كثير وصباح ماطر· وأنا ··

الكائن الصغير الذي ينتظر في السجن ، جلسة المحكمة الثانية للبت في موضوع : القتل ·

الان ، في هذه اللحظة تحديدا ، أحس براحة عميقة لا أعرف مصدرها تماما · ربما لانني لا أقيم وزنا للوصف الاخلاقي للجريمة من أي مصدر جاء هذا الوصف ، وربما لانني واجهت أسئلة صغيرة جدا بالقياس الى الحادث الكبير جدا · « هلّ تقتل رجلين لانهما بالا على جدار بيتك ؟ » « لماذا لم تدفع نفسك لتصور العقوبة في حال القتل مما كان سيساعدك على تخفيف الغضب ؟ »

« هل فكرت بأن للرجلين مستقبلا وأطفالا وزوجات وأملاكا ، وحياة مليئة ؟ »

انها اسئلة مريحة معفية من البحث عن أسئلة أهم ، أسئلة بالامكان طرحها في اي مكان واي مستوى ٠ المهم ٠ اني لا انتظر شيئا محددا ٠ ها أنا أقوم بعمل ما ، واخفف عن صدري أوزانا متراكمة خلال ثلاثين سنة عشتها في هـذا الوطن ، وأعلم ان هناك أكثر من طريقة للتخفيف عن الصدر ٠ وانني أتمنى لو كان من نصيبي طريقة أخرى أكثر فاعلية واقل بشاعة ٠ لكن الذي حدث حدث وانتهى الامر ٠

انني أحاول أن أرى من الكوة المقابلة شيئا ٠ للحظة أتوهم انني ما زلت في البيت وانني سأواجه الوحش الاسطوري الدموي وذيله المرتفع على هيئة مشنقة ، لكنني أرى مجموعة من السجناء يتجولون بأجساد مائلة وببطء شديد في الباحة الرئيسية للسجن ٠

هذا الصباح ماطر ، كان جميلا في الكتب أيام زمان ٠ أيام كان الانتصار هو الامل به ، والحب هو الامل به ، والمستقبل هو الامل به !

هذا الصباح الماطر جميل وشفاف كأنه بستان من الكرز فوق هضبة ٠ متلامع تحت الشمس وفوقه رفوف من الطيور السوداء البطيئة والمائلة ٠

انني موجوع بكل هذا الجلال الحزين ٠
ويدق الحارس الباب ٠ وها أنا أمضي ٠

دمشق ١٨/١٢/١٩٧٧



الغـــروب

الجــرح ...
مغارة الــدم القادم !

« جندي مجهول »

- ١ -

هطل المساء على المدينة ٠٠ وانكفأ الصمت على وجهه فاردا يديه العملاقتين ، فاتقتهما المدينة بالاصابع ٠ تعرش الضوء سفح الجبل ، وامتدت أطراف وشاح ملون تلو اخر باهت ، وفهي وجه العمارات ، وأصبح الدخان ، وصفير القطار وابتهال الشجر العاري حقائب ترحل ملتاعة الى سبات لذة مرتجاة ٠

- ٢ -

توددت سحابة شقراء الى الافق الغربي ففردت جناحيها ؛ تلاصقت مع جارتين صغيرتين فصارت السحائب الثلاث كتشكيل طائرات مقاتلة ٠

السلسة الهادئة الرؤوس من الجبال الممتدة عبر هذا الافق المقطوف اللون ، تتهشم في اغريقية تامة كتماثيل

محاربين قدماء، وتذوب خلفها حديقة امتلأت بالورود الضخمة الحمراء تطرزت حواشيها برؤوس أشجار الحور الملصوقة على جدار اللوحة في حالة اختفاء للابعاد والمسافات ٠

- ٣ -

شقة في الطابق الخامس تصطف على حافتها أصص الزهر ٠ ارض الشرفة ملساء كخد ٠ واذ تتموج مع الهواء شجرة الكينا الطويلة الظليلة القريبة منها ، يتذبذب ما تبقى من ضوء النهار الراحل على وجه البلاط ، فتشكل حفنة من الاشباح ، تتلاشى ثم تعود في رقص مثير ٠

صرخ صبي يلعب مع رفاقه في الحارة : « ابتعدوا لئلا يصيبكم الصاروخ ٠٠ » وانفجر صاروخ الورق قرب الشرفة بعد ان ارتفعت عيون الاطفال ترافقه الى هذه المسافة ٠

بائع الحلوى على الرصيف ينادي بصوت عجوز فيلتم حوله مجموعة اطفال ٠ يهش في وجوههم ، يضحكون ثم يبتعدون ٠

بائع المفرقعات يطلق أسهما نارية وحوله ثلة أخرى من الاطفال ٠ صفق سرب من الحمام الابيض فوق الشرفة وتوقف على حافة السطح ٠ تقدم ذكر من احدى الحمامات « ترتر » ، نفرت، دار حول نفسه ثم تفلّى ٠ فرفع قرب الشرفة صاروخ اخر ٠ طار سرب الحمام واتجه ناحية الافق الغربي فنقط اللوحة لحظة ثم ذاب في عتمة ما تحت الافق ٠

في الشرفة المجاورة صوت طالب ٠ طالب ثانوي يقرأ

بصوت عال شعرا للمتنبي ٠ علـى حافـة الشرفة الاخرى يستلقي ، كمنديل فتاة ، كتاب فيه مختارات من شعـر « بايرون » وبجانبه كوب من الشاي يتصاعد منه البخار ، وعلبة سجائر تتكيء على علبة كبريت ماركة « المـدفع » ٠ والمساء ما يزال قطعا سوداء في حبر العالم ٠

- ٤ -

دقت ساعة « بيج بن » اربع دقات ٠ ارتفع صوت مذيع اجش ٠٠ « هنا ٠٠ » « جاءنا ما يلي ٠٠٠٠٠٠ » سكت المذياع ، ونس الصمت هادئا رتيبا ٠ كأذنـي وعل طـويل العنـق امتدت ورقتان خضراوان في أصيص انيق على الشرفة ٠ صفر القطار صفيرا متقطعا حزينا ٠ ودع حبيب اخر حبيبته على رصيف المحطة ومضى ٠ يداه فارغتان من المناديـل البيضاء ٠ بكت ٠ لوح لها ٠ يداه في حركة التلويح تحاول ان ترسم الرجـوع ٠

مزيد من الدخان يصهب عنق السماء ، والاضواء تنبت في سفح قاسيون ٠

أقبـل الليـل ٠٠٠

ها أقبل الليل ٠ امحت من الافق الغربي الغيوم فـي تشكيلها القتالي ٠ رتل اخر من دبابات شيفتن ، سنتريون يزحف باتجاه الشرق ٠ رتل اخر واخـر ٠

الصمت خرزة زرقـاء ٠

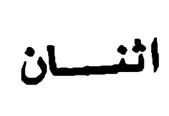
عويل نسيم بارد يسفع بصيص سيجارة ينز ٠ صوت

ارتشاف الشاي يهوي الـى القـاع • اختفـت أذنا الـوعل الخضراوان • بات سرب الحمام في مخابئه • لوح الاطفـال للباعة والشارع ومضوا • ساخ عواء الكلاب والقطط علـــى الرصيف • اصطفقت نافذة في البناية وسقط كوب الشاي الى الشارع فتحطم •

- ٥ -

نهض رجل غير دمشقي من كرسيه • تمطّى • بصق على بلاط الشرفة ولبس « جاكتته » وهبط الى الشارع يزرع خطوات بطيئة ، ووجهه مسمر في الافق الغربي •

١٩٧٠


اثنـــان

الصمت كساء الغرفة العارية • تتحدر من نافذة كبيرة فيها عتمة الليل في الساعة الواحدة بعد منتصفه • يتـدلى من السقف مصباح كهربائي درجة « ٦٠ » ، يسقط ضوؤه على طاولة صغيرة في منتصف الغرفة • عليها كأس ماء ، وحولها كرسيان ممتلئان بجسدي طالبين جامعيين ، احدهما أنثى • الكتاب في اتجاه متعامد مع وجهها • عيناها الكبيرتان مثبتتان بسكون كامل ، جسدها النحيل يتعرج على الكرسي ، ويداها قطعتان ممدودتان بالتصاق نهايتها على الكتاب • وشعرها يتوكأ على جبهتها وقد سكنت في أخاديد الجبهـة سطور بخط رفيع لا يقـرأ •

على غلاف الكتاب بالخط الاسود عنوان ضخم « الفقه الاسلامي » • تحركت اصبع يدها اليمنى باتجاه الاعلـى ، وارتفعت العينان بتراخ ثم ارتمتا على صفحة الكتاب •

تسللت برشاقة الى الغرفة نسمة هواء باردة • تحركت ورقة مسودة على الطاولة رسمت عليها بغير اتقان ، صورة

طفل مشرد ، عيناه كوكبان ، وفيهما طعنتان تلـوذان باللون الازرق • كانتا ضيقتين وحزينتين • نبتت الى جوارهما على ورقة المسودة وردتان ذبلتا • وانفرطت منهما وريقتان •

تناهى الى اخر لحظة سكون باقية صوت سيارة شاحنة . وتنامى صراخ احدهم : « ارجع ، ارجع ، خالص » •

□

وجهه كرة مثبتة تحت يدي لاعب حذر • خطوطه منحنية في التواء شائخ فيه وقار • والكتاب مستلق على فخذيه • ترنحه نسمة الهواء التي بقيت في الغرفة • لا شيء يكبـر • عينان ملصقتان علـى شفتيهما الصامتتـين • والمصبـاح في هذا الحيز • « منامتها » الزرقاء فقط تخضر في عينيه • يتحول لونها الى اصفر كلما تحرك المصباح والعينان • بعد دقيقة تحركت رجله اليمنى الممدودة على كرسي اخر مقابل • سقط الكتاب • رفت عيناها ، وشحب ما حولهما • ثبتتهما على الكتاب المشعث على الارض •

ولم يتحرك الكتاب ، والارض كانت نظيفة !

□

اقتتل دوريان في مدخنة المدفأة على سطح الجيران • تناهت « خرمشـة » الاظافـر الصغـيرة اليهما • تغير لون الوجهين ، وانزوت ابتسامتان على شفتين ، واشتعل عود كبريت فأشعل سيجارة !

□

همسات جارتين ساهرتين على سطح مجاور • وضحكة لزجة تجمع كل شيء ، تضيفه الى الهمسات في حلقة صغيرة تشبه الدخان ارتمت بين الطالبين • تحرك كأس ماء فارغ الى نصفه على الطاولة • شربت بصمت • ثم شرقت بالماء• سعلت • احمر وجهها• عادت الى الكتاب، وقرقعت كجريدة، صفحة طويت !!

□

هبطت الى النافذة وانساحت في الغرفة كتل اخرى من الظلام • ترنح المصباح ، فتذبذب شعاعه على الطاولة ، وغفا الوجهان في ترنح الظلال •

ما يزال السكون رداءا باهتا في كل الارجاء • لم يتحرك كتاب الطالب عن الارض ، فانتفخ عنوانه :

« الحرب الالكترونية ، دراسة في تطورها المتوقع • »

قرقر صوت معدة • دوت طلقة في الخارج ، ارتفع صوت راديو على سطح الجيران • تعرجت اغنية محنية ، وسقطت جثة على الطاولة • قفز الاثنان ، والتقى وجهاهما في امتداد ظليل • « وسقط الكتاب الاخر على الارض بجانب رفيقه !!»

هبت نسمة ليل باردة• وخفق المصباح فجأة، وانطفأ ••

□

في الخارج كانت صفارات الانذار تعلن بدء الحرب • كانت سيارات الاسعاف والنجدة تلصق اعلانات عتيقة في شوارع دمشق المبتلة !

١٩٦٩



عندما دلف الى الغرفة كان يعلم انه لن يجد فيها سوى امرأة بيضاء قد تعرت من ثيابها ، واستلقت على سرير مغطى بستائر ٠٠ والغرفة نصف معتمة ، والصمت مريب !

كان محمود الحامد يرغب في ان يتكلم ـ هذه المرة ـ عن نفسه ، على الرغم من أنه يعلم انها ستمنعه من ذلك ، فقد تهيأت ـ (بناء على موعد) ـ لان تستقبل شيئا اخر ٠

جلس على كرسي صغير وابتدأ يدخن ٠ فتش عن صحن السجائر ليلقي فيه عود الكبريت ٠

كانت ما تزال مستلقية على ظهرها ، والهواء الموجود في الغرفة معبأ في قوارير العطر الفاخر ٠

ـ متى يأتي من العمل ؟

ـ مـــن ؟

ـ زوجـــك ٠

ضحكت « الممثلـة » ٠

ـ لا تخـف ٠

وضحكت السيدة والدته ٠

وكانت تمنع الجميع من تناول الغداء قبل أن يأتي أبوه ويغسل وجهه ويديه ، ويبدأ بأول لقمة ، وكان الانتظار أمام الاطباق مرا ٠ وكانت تضحك بجذل وهي في الخمسين ٠ استحال سكون الغرفة الى كلب ، ثم صار حصانا ، يصهل ويصهل ٠ ثم ذاب في بقعة يابسة من التردد ٠ صار بطن المرأة ظهرا ٠ وكان الظهر شريحة من التفاح المذهل ، وقد تودد الوجه المرتاب قائلا « تعال » ٠ وجاء فصل الصيف شجرا من الكستناء العاري ، حنينا في العروق ، وصار محمود الحامد خطوة باتساع الهدبين ٠

وضع محمود الحامد يده على عنق المرأة ٠ انحدرت يده الى اسفل ٠ بكى طفل في العتمة ٠ تحول اليه ٠ وقف ووجهه فوق سريره ٠ هتف الطفل : « بابا » ٠ نبت العشب على جسد الرجل ، صار حديقة ٠ امتلأت بالاطفال ٠٠ يلعبون ، ويضحكون ٠

(والعنكبوت حيوان صغير يأكله صغاره المعبأون في كيس شفاف، على ظهره حتى ينتهي جسده ٠٠ ويكبرون) ٠ فتح باب الغرفة ٠ وقف بالباب رجل ضخم الجثة ٠ هجم على محمود الحامد وأغمد في صدره سكينا ، وظلت تتأرجح ٠

سال الدم على الارض ٠ (صارت الاشياء كرة ارضية مغموسة في صباغ احمر) ٠ صار الدم بركة بطيئة دبقة ٠ على موجها الصغير انغرست اعلام متعددة الالوان ٠

حمل المصارع المرأة العارية ٠ مددها بصمت في البركة ٠

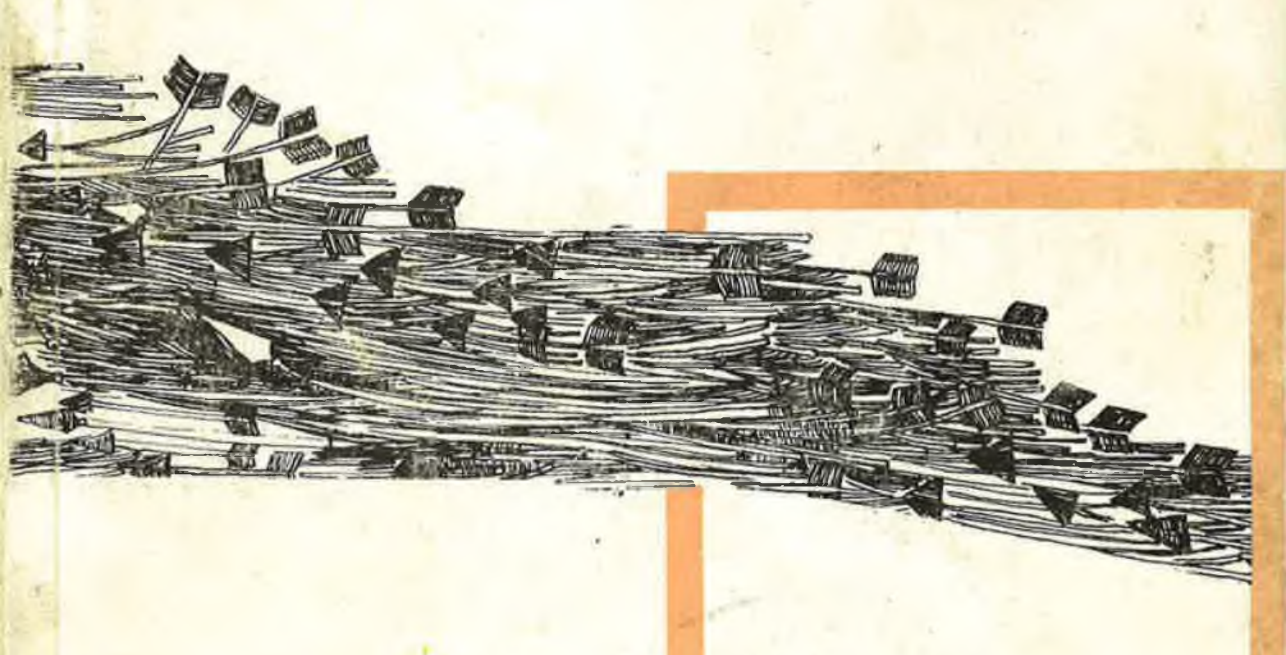
كانت المرأة خائفة كان الطفل هادئا ، وكان الدم ساخنا .

خلع الرجل اثوابه بهدوء شديد . ضاجع زوجته بنفس الهدوء ، وابتسم .

كانت السماء في الخارج شديدة الزرقة ، وقد طافت على وجهها طيور ضخمة على شكل بجع اسود !

١٩٦٩

الفهـرس



دار ابن رشد للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - بناية موسى، ت ٣١٨٧٦٨

بيروت - لبنان

الثمن ٥ ل.ل.

او ما يعادلها